جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الانسانية
ظهر مهراز-فاس

الموسم الجامعي 2019-2020

شعبة التاريخ- مسلك التاريخ والحضارة
وحدة: النهضة الأوربية ذ: عبد الهادي البياض
(الفصل الثاني)

مقدمة.
المحور الأول: أثر الحضارة العربية الاسلامية في أوروبا.
المحور الثاني: أوروبا في مستهل عصر النهضة.
المحور الثالث: مظاهر النهضة الأوروبية ومقوماتها.
المحور الرابع: النهضة الأوروبية وحركة الاصلاح الديني.
المحور الخامس: الكشوفات الجغرافية وبداية التوسع الأوروبي.
خاتمة.

قائمة ببعض المراجع:

- حاطوم: تاريخ القرن الثامن عشر، دار الفكر، دمشق، بيروت.
- براون: تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة المرزوقي، ط، عمان، 2006م.
- فشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة نجيب هاشم، دار المعارف.
- ريفي ريمون: مدخل إلى التاريخ المعاصر، ترجمة علي مقلد، بيروت، 1984م.
- روبرت بالمر: ثورات الحرية والمساواة، ترجمة عبودي، دار الطليعة، بيروت، 2008م.
- أرنولد هاوزر: الفن والمجتمع عبر التاريخ، ترجمة فؤاد زكرياء، المعهد العربي للدراسات، 1981م.

- Albert Feuilleerat : Contribution à l'histoire de la renaissance en Angleterre.
- Bayle : la naissance du monde moderne.
- Daniel Mornet : La pensée française au 18s.
- Ernest Cassirer : La Philosophie des lumières.
- Jean Bertaud : L'An I de la république .
- Marcel Gauchet : La révolution des droits de l'homme.

المحور الأول:

أثر الحضارة العربية الاسلامية في أوروبا

مقدمة:

استطاع العرب خلال فترة تمتد من سقوط الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية في القرن7م وحتى أوائل عصر النهضة الأوربية من القرن 14م تمثل كل المعارف القديمة تقريبا ودمجها في حياتهم الثقافية، بحيث كان العرب القيمين الوحيدين على المعرفة اليونانية وغيرها من المعارف القديمة لما يناهز خمسة قرون، في زمن كانت أوروبا تفقد صلاتها بثقافات العالم القديم.

1- العلوم والمعارف العربية الاسلامية التي انتقلت إلى أوروبا:

❖ - التاريخ والجغرافيا:

ابتكر عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة 1406م، -إلى جانب تأسيسه للمدخل الفلسفي في التاريخ-، علمي الاقتصاد والأنثروبولوجيا وعلم السياسة. وحين اكتشف الغربيون كتابات ابن خلدون لم تكن تبدو لهم أنها جديدة، حيث ابتكر آخرون خلال عصر النهضة الأوربية نظريات مماثلة. وبعد رحيله بقرون، تمت ترجمة تراثه ودراسته، وما كان بوسع الدارسين الغربيين أن يصدقوا ما أنجزه ابن خلدون بمفرده.

لاحظ ابن خلدون أن الاستدلال المنظم الذي طبق على الفقه والفلسفة والعلم لم يطبق على التاريخ، فكرس جهده للقيام بهذا الأمر، واستطاع بالتالي أن يؤكد أن الأحداث التاريخية على علاقة متبادلة وتجري وفق نمط العلة والنتيجة.

تأمل ابن خلدون في النوع البشري، فلاحظ أن المجتمع يزدهر لفترة ما ثم يبدأ انهياره التدريجي نتيجة العجز والفساد، ويقوم مقامه نظام جديد، وتستمر الدورة الحضارية على هذا النحو.

وبالتالي، فقد اعتمد ابن خلدون منهجية جديدة في الكتابة التاريخية، وخاصة في مقدمته؛ حيث تبرز عقليته النقدية في دراسة المصادر التي اعتمد عليها، ووضع نظرية في العمران البشري، وقعد لمراحل قيام الدول وسقوطها، واهتم بالدراية أكثر مما اعتنى بالرواية. وكان يسعى لترسيخ دور المؤرخ في إدراك كنه الأحداث والوقائع من خلال الاجابة عن سؤالين يستهلهما بـ: لماذا؟ وكيف؟.

وفي الأدب الجغرافي حقق الجغرافيون المسلمون تراكما هاما لتطوير هذا العلم، فالمقدسي عرض منهجية الاشتغال في الميدان منذ القرن 10م، وفي كتابه" (أحسن التقاسيم) كشف المقدسي عن الأهداف التي رسمها بدقة؛ مع اعترافه بما تحقق وما لم ينجح في تحقيقه، فقال: "إن الدقة التي حددتها كهدف لجهودي(...). وبالنسبة للأقاليم التي لم أتمكن من وصولها، فإني اعتبرت أن ما أجمع عليه أهل العقل هو الصحيح، ونبذ ما لم يتفقوا عليه، ذهبت إلى كل مكان دون أن تعترضني صعوبات، والذي لا أعرفه كنت أسرده مع ذكر المصدر الذي أخذت عنه (...)، ولا أدعي أني لم أخطئ أبدا".

وتمكن الادريسي المزداد بسبتة عام 1100م؛ من إبراز قدراته في إثبات كروية الأرض مستدلا برسم خرائط مثيرة بدقتها؛ حيث استفاد منها ملوك صقلية. وتعد جزيرة صقلية خير شاهد على نبوغ الحضارة العربية الاسلامية التي قدرها النورمانديون منذ القرن 11م، فكانت عاصمتهم "بالرمو" (Palerme) تفخر باستقبال نبغاء علماء المسلمين وفي طليعتهم الجغرافي الشريف الادريسي.

وبالمثل دشن الرحالة ابن بطوطة المزداد بطنجة عام 1304م، والمتوفى في مراكش عام 1369م (أو 1377م)، أدب الرحلة بتنقله الهادف عبر بلدان المعمور. كما إن مقارنته بنظيره الغربي لمعاصره القريب "ماركوبولو" (1254-1344م)، لهي مقارنة طريفة لأن الرحالة ابن بطوطة قد ظهر في وقت بدأت فيه شمس أعظم عصر للإبداع الاسلامي تميل نحو الغروب.

ولما جعل ابن بطوطة نقطة انطلاقه، ابتعد شرقا إلى أن وصل العراق وإيران، ونزل على جانبي البحر الأحمر إلى اليمن وعدن، ومن ثم إلى الساحل الافريقي الشرقي، وبعدها رجوعا عن طريق عمان والخليج العربي. وفي رحلة أخرى – علما أن عدد رحلاته بلغ ثمانية رحلات- وبعد أن حج مرة أخرى عام 1332م، رغب ابن بطوطة في تنظيم زيارة للهند، فعبر مصر ثم سوريا، وأبحر بسفينته إلى إستانبول عبر اللاذقية، وتجول في آسيا الصغرى، ثم عبر البحر الأسود إلى القرم، وشق طريقه على اليابسة عبر سمرقند وبخارى وأفغانستان حتى وصل ضفاف نهر الهندوس في الهند في شتنبر1333م، وقدم للقضاء في دلهي، ثم بعثه سلطان الهند مبعوثا له إلى إمبراطور المغول في الصين ثم عاد ابن بطوطة أدراجه سنة 1349م إلى مراكش. ثم قادته رحلة أخرى عام 2352م إلى الصحراء الكبرى إلى امبراطورية (ماندينغو) وهي مالي الاسلامية. ولدى عودته إلى فاس أمره السلطان أبو عنان المريني أن يملي مضمون رحلاته على الناسخ "ابن جزي" حيث أنهى ابن بطوطة املاءها عليه عام 1357م. ومعلوم أن الغرب قد استفاد من المعلومات الواردة في رحلة ابن

بطوطة عبر الترجمة، وفي هذا يشير المترجم الانجليزي لابن بطوطة "جيب"، أن الرحالة الجسور "يغيب عن الأنظار ولا يصبح بوسع المرء إلا أن يخمن الأسلوب الذي أمضى به أواخر سنوات حياته كقاض في هذه المدينة أو تلك".

❖ - الأدب:

أخذ الشعر العربي الأندلسي يحاكي النماذج الشرقية، ولم يصبح نموذجا قائما بذاته إلا حوالي القرن الحادي عشر. غير أن تلك الأشكال التي اتخذها الشعر العربي الأندلسي كانت تنطوي على أهمية خاصة بالنسبة للغرب، لأن الأندلس شكلت موطن احتكاك الأدب العربي والأدب الأوربي مما كان له أثره في الأساليب الأدبية الغربية. وثمة احتمال أن يكون الزجل والموشح الأندلسيين سلفا أغاني الحب والفروسية التي نشأت في أوروبا في القرون الوسطى.

كان الزجل الشعبي والموشح الأندلسيين إبداعين جديدين انبثقا من تمازج الثقافتين العربية الاسلامية والبروفنسية الاسبانية، ويعد الزجال ابن قزمان الأندلسي المتوفى عام 1160م من أبرز رواده. وكان الزجل والموشح ينظمان بغرض الطرب والغناء مما دفع بالموسيقى العربية والأغاني الشعبية الأوربية بأداء دور أساسي في ذلك التفاعل. ومن بين من برع في نظم الموشح نذكر ابن بقي المتوفى عام 1145م، وابن سهل المتوفى عام 1251م. وبالتالي فإن الموروث الغرامي الأندلسي شق طريقه إلى الحب البروفنسي، حتى جاز أن تكون لفظة "تروباردو" مشتقة ـ عبر الكلمة البروفنسية "تروبار"ـ من الكلمة العربية "طرب".

ومما كان له أثره في الأدب الأوربي العاطفي الرقيق، كتاب "طوق الحمامة" لصاحبه ابن حزم القرطبي المتوفى عام 1064م، الذي يعد أحسن ما ألف في سيكولوجية الغرام والعشق، هذا المصنف كان مصدر إلهام الكاتب (آندريس كابيلانوس) في كتابه "فن الحب الرقيق" الذي صدر عام 1185م، ويعد من بين أهم الكتب الكلاسيكية التي يدور موضوعها حول الحب الفروسي في أدب العصور الوسطى.

إن إشعاع الحضارة العربية الاسلامية ما بين القرن 8 و12م، أدت على حصول ثورة ثقافية تجلت في أدب الترجمة، حيث اولى الخلفاء عناية بترجمة الكتب العلمية والفلسفية من اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية. وفي هذا المنحى، اهتم الخليفة العباسي عبد الله المأمون بالبحث عن العلماء من مختلف التخصصات، كما قدم لأباطرة بيزنطة الهدايا النفيسة ليحصل منهم على الكتب الفلسفية، فنشطت حركة الترجمة تحت إشرافه، فازدهرت

الحركة العلمية وغدت الحضارة العباسية تنافس نظيرتها الرومانية. ويعد عبد الله بن المقفع الفارسي كاتب الخليفة أبي جعفر المنصور من بين الأعلام الذين سطع نجمهم في علم المنطق، وذلك من خلال ترجته لكتب أرسطو في المنطق.

ففي الوقت الذي كانت فيه بغداد وقرطبة وطليطلة وصقلية تتسع حضارتها بالأنشطة العلمية والفنية والعمرانية، كان الغرب المسيحي يعيش سباتا حضاريا عميقا. وفي هذا الصدد تحدث اليعقوبي (987م) عن بغداد كمركز علمي استقطب أهل العلم والمعرفة من جميع الأقطار بقوله: "أبدأ كتابي بالعراق لأنها ملتقى العالم، وأذكر بغداد في الأول لأنها مركز العراق وأكبر حاضرة لا مثيل لها. الناس من جميع الأجناس، ومن جميع المناطق، والأقاليم يقصدونها من جميع البلدان القريبة والبعيدة، ويفضلونها عن أوطانهم الأصلية. ليس هناك شعب لا يملك حيه الخاص فيها، وبضائعه وحوانيته، السلع والبضائع والقوت كثيرة ووافرة وسهلة الاقتناء؛ حتى يمكن أن نقول إن كل منتوجات الأرض دخلت إليها".

وبالمثل كانت بلاطات حكام الأندلس تضم مراكز لترجمة المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية، ومنذ فجر القرن 12م كان الدارسون يفدون إلى الأندلس من أوربا وخاصة من فرنسا وانجلترا وايطاليا طلبا للعلم وضروب المعرفة حيث كانت تيسر لهم مراكز الترجمة الأندلسية الالمام بالأدب والثقافة العربيتين.

وفي هذا اشتهرت طليطلة كمركز لترجمة المؤلفات العربية، ومن أبرز المترجمين نذكر مؤسس المدرسة الطبية "قسطنطين الافريقي" المتوفى عام 1087م، إلى جانب المترجم "جيراردو كريمون" المتوفى بطليطلة عام 1187م. وبالمثل توارثت عائلة "ابن تيبو" اليهودية أعمال الترجمة خلال القرنين 11و12م. كما ساهم في تشجيع أنشطة الترجمة فيما بعد "الفونسو العاشر" خلال النصف الثاني من القرن 13م.

وبسقوط الأندلس في يد المسيحيين، صادر الاسبان خزانات طليطلة الضخمة وشرعت عملية كبرى لترجمة التراث العلمي العري الاسلامي إلى اللاتينية. وتزايد إقبال الطلبة الأوربيين على اللغة العربية بشغف كبير، نستشف ذلك من شهادة طالب إنجليزي، دفعته رغبة التحصيل العلمي العربي في هجرة بلاده والتوجه صوب طليطلة عبر فرنسا، حيث قال: "بقيت بعض الوقت في باريس، ولم أر هناك إلا متوحشين جالسين على كراسيهم المدرسية (...). إن في أيامنا هذه ليس هناك مثل طليطلة حيث التعليم العربي الذي يهتم بالعلوم الممنوع على العوام فأسرعت إلى هناك". وبالتالي أصبح عموم الطلبة " المسيحيين، يتذوقون الشعر والرواية العربيتين (...) لاكتساب أسلوب عربي صحيح، ليس هناك من يدرس الانجيل، إن الشباب المسيحي (...) يقرؤون ويدرسون بجشع ونهم

المؤلفات العربية، وهم يملؤون بكثرة جميع المكتبات، وفي كل مكان يمدحون ويتغنون بالعلم العربي". وبالتالي شكلت الأندلس جسرا حضاريا ربط الشرق بالغرب.

❖ - الفلسفة:

عرف أبو يوسف يعقوب الكندي المتوفى عام 873م الفلسفة، بأنها "معرفة الأشياء على حقيقتها طبقا لمؤهلات الفرد العقلية". و بالرغم من الانتقادات الشديدة التي كالها الغزالي للأفلاطونية المحدثة الاسلامية، بقي ابن سينا؛ -المعروف في أوروبا باسم (Avicenne)- المتوفى عام 1037م، يناصرها. فمنذ القرن الحادي عشر شكلت السيناوية المتأصلة في الفرابي وأفلوطين وأرسطو الأساس الذي نهضت عليه تطورات أكثر تعقيدا في اتجاهات فقهية وفلسفية.

وطور كل من الفارابي المتوفى عام 950م، وابن سينا وجهة نظر عقلية فلسفية وأخلاقية مستمدة من أفلوطين وبروكلوس وهما آخر فيلسوفين يونانيين من أواخر الحقبة القديمة، ومن خلالهما صاغا نظرية الفيض حول بدء الكون – ولو أن ابن سينا جاء بعده بجيل-، وهي نظرية تعارض المفهوم القرآني القائم على خلق الكون من العدم.

وجاء بعده الفيلسوف شهاب الدين السهروردي المتوفى عام 1191م، ليستثمر النزوع الكامن في فكر ابن سينا. وفي التراث الإشراقي يعود الفضل للسهروردي في تركيب مناهج الفلسفة المنطقية بمناهج الصوفية التجريبية.

إن تيار الاشراق شبه الصوفي الذي استهله ابن سينا؛ قد تطور على يد السهروردي وأخذ ينتشر كتيار ضمن حلقات الشيعة في بلاد فارس الصفوية. هذا وقد حمل مؤسس السلالة الصفوية شاه اسماعيل (1500-1524م) -الذي كان يدعي انحداره من جماعة صوفية ظهرت في القرن 13م- على كاهله دعم العقيدة الشيعية في فارس، وبالتالي فإن الاهتمام بالفلسفة والشريعة الذي نكص في العهد المغولي، قام من جديد في فترة شاه اسماعيل ومن أتى بعده.

إن الحركة المناهضة للسيناوية (نسبة إلى ابن سينا) تزعمها الغزالي وابن رشد المتوفى عام 1198م، ذلك أن انتقاد الغزالي للأفلاطونية المحدثة أوصل المسألة إلى حالة التأزم. كما أن دراسة ابن رشد الدقيقة وتحليله لنصوص أرسطو وضعاه في موقع يمكنه من خلاله تقدير مدى ابتعاد ابن سينا عن التعاليم الجوهرية لأرسطو.

وعليه، ففي نهاية القرن 12م، قدر للحركة المناهضة للسيناوية أن تتوطد في الغرب اللاتيني. كما أسهم بعض اليهود بنصيب وافر في نقل التراث العربي الاسلامي إلى أوروبا الغربية، ذلك أن غالبية مترجمي أعمال ابن رشد كانوا يهودا متمرسين؛ من الذين جذبهم لدراسته الاعتبار الرفيع الذي خلعه عليه أعظم اريستطالي يهودي، وهو موسى بن ميمون المتوفى عام 1204م، المشهور في الغرب باسم (Moses Maimonides). إن معظم الدراسات الفلسفية لابن ميمون كانت مكتوبة باللغة العربية، شأنها في ذلك شأن كتابات "يهودا هاليفي" المتوفى عام 1140م، وكذا أعمال "سالمون بن غابرييل" المتوفى عام 1070م.

لقد أرشدت ترجمة مؤلفات ابن سينا وابن رشد اللاهوتيين المسيحيين بين منتصف القرن 12م وبداية القرن 13م، إلى تفحص المعرفة اليونانية التي طمست في الغرب منذ أمد بعيد، ذلك أن إعادة اكتشاف أرسطو من طرف القديس "سان توماس الاكويني" (Saint Thomas D'aquin) وسيده "البير الكبير" (Albert le grand) يعود بشكل رئيسي للترجمة والمؤلفات العربية الاسلامية. وبناء على الاطلاع المباشر على كتابات أرسطو كتب القديس "سان توماس الاكويني" تعليقات مسهبة؛ ليس لها في عمقها نظير سوى تلك التعليقات المميزة لأبي الوليد محمد بن رشد الذي يشار إليه في المصادر اللاتينية بـ "آفيروس القرطبي" (Averroes).

وحتى القرن 16م، ظلت الشروح العربية لأرسطو وفق فهمي ابن سينا وابن رشد تحتل الصدارة على مسرح الفكر والمعرفة في أوروبا الغربية، إلى درجة أن مناصريهما من الغربيين احتدم الجدل بينهما فانقسما إلى فئتين: أنصار (Averroes)، وخصومهم أتباع (Avicenne). ذلك أن ابن سينا كان له تأثير قوي في العالم المسيحي من خلال مصنفيه: "الشفا" و "القانون"، بحيث أبدع فيهما أكبر عملية للتركيب والتأويل في تاريخ الحضارات، ووجدت كتاباته صدى في مؤلفات "سان توماس الاكويني" و "البير الكبير".

أما ابن رشد فقد دخل البلاط الموحدي حوالي 1135م، وهو عالم متبحر في الطب والفلسفة، حيث أجاد في شرح وتلخيص وتنقيح كتب أرسطو، ودعا إلى حرية الفيلسوف في البحث عن الحقيقة، لكن أعداءه ألقوا بكتبه في النار، اما اليهود فقد اهتموا بمؤلفاته وحافظوا عليها ونقلوها إلى اللغة العبرية، وفي هذا الصدد اقتفى "سان توماس الأكويني" أثر مؤلفات ابن رشد وحاكاه في تأويلاته، وبالتالي كتب مؤلفه "المجمل" في محاربة العقل.

وبالتالي تأثر الأوربيون بالفلسفة العربية الاسلامية، بحيث نجح الفلاسفة العرب والمسلمين في جعل الفكر الاغريقي يتناغم مع الدين الاسلامي في الغالب، من خلال تعايش العقل والنقل؛ الشيء الذي كان له أثره في التحولات التي عرفتها أوروبا في عصر النهضة. كما أصبحت الفلسفة العربية مطلوبة في جامعة باريس، وصار دورها محوريا في تطور الفكر الأوروبي مما مهد لظهور العلم التجريبي.

❖ **- التراث الفنى:**

كان تأثير الحضارة العربية الاسلامية على التراث الفني للغرب في عدة اتجاهات فعبر العالم المسيحي في العصور ما قبل الحديثة على إعجابه بخصائص الفن الاسلامي. حيث مضت قرون على الغرب ليكتشف تقنيات السيراميك التي يمكن أن تضاهي الابداعات العراقية والمصرية، وإلى عهد قريب ظل الغرب يستورد ويقلد منسوجات الشرق الأوسط. وأما فيما يتعلق بالعاج والزجاج والأشغال المعدنية تدين بالكثير من مميزاتها الفنية للنماذج الاسلامية. ولهذا فإن ثمة نماذج مثل الحيوانات البرونزية المنحوتة والمعروفة باسم "Dinanderies" نسبة إلى مدينة دينانت البلجيكية. وكذا الأشغال الفينيسية المعدنية المرصعة. وقرون العاج الاحتفالية المعروفة باسم "Oliphants" المأخوذة من جنوبي إيطاليا.

إن الفن الغربي، علاوة على اقتباسه التقنيات العربية وأشكال الأشياء، كان يعود بشكل متواتر لاستعمال المعالم الأساسية للحضارة العربية الاسلامية التي تتجلى في الأمور الفنية المزينة، فمثلا اقتبس الخط العربي لتزيين عدة كاتدرائيات القرون الوسطى، كما وظفت تطريزات فنية عربية واسلامية متعددة أيضا في تزيين أثواب العذراء خلال عصر النهضة.

وعثر على كوز مصنوع من البلور الصخري محفوظ في خزانة "سان ماركو" في البندقية، هذا الكوز يتخذ جسمه شكل إجاصة وعنق ضيق وميزاب عريض، ويعتليه مقبض منحوت لظبي ذي قرنين، بالإضافة إلى فهدين يزينان جانبي الكوز كل واحد منهما جاثم على مركب نباتي شكلي. ووجد عليه عبارة منقوشة تقول: "ليبارك الله الامام العزيز بالله" في إشارة إلى الخليفة الفاطمي الذي حكم في الفترة من 975م إلى 996م. إنه في الواقع تحفة فنية مجسدة بمهارة استغلت في حفر الزهور والحيوانات والنموذج الدقيق للمقبض بكل التفاصيل من مادة البلور الصخري. فعلى مدى قرون عديدة قبل النهضة الأوروبية كانت الأواني الفنية العربية الاسلامية موضع تقدير رفيع ما كان لها نظير في عالم المتوسط على حد قول (أولغ غاربر) أستاذ الفنون الجميلة في جامعة هارفارد.

وإلى جانب ذلك، لا يمكن إدراك الفن المعروف بـ "موزاراب" (Mozarabe) المنتشر في إشبيلية وكاتالونيا إلا من خلال المهندسين والفنانين، ومهرة الرسامين القادمين من جنوب إسبانيا؛ حيث مجال ازدهار الفنون العربية الاسلامية الأندلسية.

❖ - العلوم والتقنيات:

يعتبر العلم العربي استمرار للتراث اليوناني، بحيث أصبحت بغداد العباسية الوارث الحقيقي ليس للإسكندرية فحسب وإنما لفارس والهند أيضا، أسهمت فيها مجموعات عرقية ودينية مختلفة، فمن ضمن أوائل المترجمين والأطباء والفلكيين الذين ألحقوا بالبلاط العباسي كانوا مسيحيين سوريين وفرس، وكان بعضهم كثابت بن قرة الصابئي (ت 901م) من مدينة حران الوثنية في بلاد الرافدين وكان البعض الآخر يهودا مثل (ما شاء الله). وأما اللغة العربية فقد كانت العمود الفقري الذي يوحد بين هؤلاء جميعا، وأن عملية الترجمة الواسعة إلى العربية أدت إلى حصول تراكم معرفي غير مسبوق. وفي هذا الصدد وصف العالم الفارسي البيروني خلال القرن 11م العربية بأنها اللغة التي تناسب التعبير العلمي أكثر من أي لغة أخرى. وبالمثل قدم المؤرخ "روني تاتون" (RenéTaton) شهادته بهذا الشأن في كتابه (العلم القديم والقروسطي)، بقوله: "عندما نقول العلم العربي؛ نعرف أنه هو الذي يروج أساسا باللغة العربية، وكل من مسته الحضارة الاسلامية تأثر بها".

❖ - الرياضيات:

يتصدر علم الحساب عادة قائمة المعارف الرياضية. فقد استقى العرب معلوماتهم الأولية عن علم الأعداد من مصدرين: من كتاب "العناصر" لإقليدس، ومن كتاب مقدمة لعلم الأعداد لصاحبه "نيكوماشس"؛ الذي ترجمه إلى العربية ثابت بن قره المتوفى عام 901م.

وبالرغم من كون الرياضي الدمشقي أبي الحسن بن ابراهيم الاقليدسي (القرن 10م) كان أول من طرح فكرة الكسور العشرية، فإن هذه الطريقة قد طبقت على نحو ناجح على الأعداد الصحيحة والكسور مع العالم "الكاشي"؛ وذلك بعد أن ألف في سمرقند مع بداية القرن15م كتابه: (مقدمة في الرياضيات) ، ومع أنه جاء متأخرا في تاريخ العلم العربي؛ إلا أنه سبق تطورات مماثلة له في أوروبا بقرنين من الزمن على الأقل.

ووردت من الهند أفضل طريقة للحساب، وكان بوسعها أن ترمز إلى أي عدد من خلال تسعة أرقام ورمز الصفر، وعرفت هذه الأرقام بالأرقام الهندية في الكتب العربية خلال العصر الوسيط. وفي هذا المنحى، كتب الخوارزمي أول كتاب بالعربية عن الحساب الهندي، كان أيضا أول كتاب في ميدان الجبر العربي، وهو غير مسبوق في أية لغة أخرى، ذلك أن

أول ما تعرفت أوربا على الجبر العربي؛ كان من خلال ترجمة القسم الأول من كتاب الخوارزمي: "كتاب الجبر والمقابلة" في النصف الثاني من القرن 12م.

وبالمثل عرفت هذه الحقبة ظهور كتب بالعربية ذات أهمية خاصة في الرياضيات لأصحابها أمثال: الكرجي حوالي عام (1000م)، وعمر الخيام المتوفى حوالي (1130م)، والسموأل المتوفى حوالي (1175م)، وابن الهيثم المتوفى بالقاهرة حوالي (1040م).

كما كرس الرياضيون العرب جهدهم لمعالجة نظرية المتوازيات (القائلة بأن زوايا المثلث مساوية لمجموع زاويتين قائمتين)، بعد أن ورثوا المسألة عن أسلافهم اليونانيين، وثابروا على حلها بإصرار لمدة خمسمائة سنة على الأقل. وعلى النقيض من ذلك، فقد نقلت المسألة إلى أوروبا في القرن 12م من خلال ترجمات لاتينية لترجمات عربية للأعمال اليونانية، إذ لا يبدو أنها أثارت أي اهتمام إلى أن جاء القرن 17م؛ الذي تعرف فيه الرياضيون الأوربيون على الأبحاث العربية التي تطرقت للموضوع بتفصيل دقيق.

كما بلغ ابن الهيثم مكانة مرموقة في تاريخ الرياضيات من خلال معالجته للمسألة التي تحمل الآن اسمه اللاتيني (الخازن) والتي بحثها في الأقسام الرياضية من "بصرياته". ولقد صمدت حتى الوقت الراهن عشرين مقالة رياضية من مقالاته، يعالج بعضها مسائل إقليدية، منها "حل التعقيدات في عناصر اقليدس" و "شرح لمنطلقات عناصر اقليدس". في حين تعالج مقالات أخرى قضايا التربيع، مثلا "تربيع الدائرة" وأقواس الدائرة"، بالإضافة عن مقالات تهم القطاعات المخروطية.

❖ **- <u>البصريات:</u>**

إن تحريات العرب والمسلمين في ميدان البصريات؛ كانت قد استلهمت مقالة "بطليموس" التي تعتبر أنضج عمل عن البصريات التي أنتجه قدماء اليونانيين، حيث ترجمت إلى العربية، كما كتب نص لاتيني عنها من اللغة العربية في صقلية في القرن 12م. ومع ذلك فالكندي سار على خطى إقليدس. أما حنين بن إسحق فقد حبك أفكار جالينوس، و بقي الفيلسوف ابن سينا قريبا من أفكار أرسطو. وأثناء حياة ابن سينا صاغ ابن الهيثم (ت 1040م) نظرية عن الرؤية لا تمت بصلة لمن سبقه.

لقد استعار ابن الهيثم من الفلاسفة الطبيعيين؛ أن الرؤية تحدث حين ينبعث "شكل" من المادة ويدخل العين، علما أن ابن الهيثم كان رياضيا ولم يكن فيلسوفا طبيعيا، ولكنه كان يجمع بين الفيزياء والمناهج الرياضية. وكمشتغل بالرياضيات، تأثر ابن الهيثم بالمدخل الهندسي المستعمل في أعمال إقليدس وبطليموس، وتعتبر محاولته بانها تطبيق للمنهج

الهندسي على مبدأ فيزيائي يرتبط بالأشكال، إذ يمكن أن يعبر البؤبؤ ويشق طريقه إلى الدماغ حيث تستكمل عملية الرؤية، وهذا ما قاده إلى بناء نظرية أصيلة غير مسبوقة عن سيكولوجية الإدراك البصري. وبالتالي فقد وضح ابن الهيثم نتائج أبحاثه في مؤلفه "كتاب المناظر"، حيث بنى حججه على منطق تجريبي ورياضي ثابت، ذلك أن بصريات ابن الهيثم تشتمل على نظرية جديدة عن الرؤية، كما تشير إلى نتائج هامة عن انتشار الضوء في خط مستقيم؛ وانعكاس الضوء واللون وانكسارهما. وعليه سرعان ما تجلى تفوق هذا الكتاب على كتب إقليدس وبطليموس والكندي وابن سينا التي ترجمت كلها إلى اللاتينية.

وفي القرن 13م كان "روجر باكون" يشير مرارا إلى ابن الهيثم باسم "كتاب البصريات". وبالمثل استفاد "وا يتلو" في كتابه الشامل حول البصريات من نصوص كتاب ابن الهيثم. هذا وقد وصل بحث ابن الهيثم حوالي نهاية القرن 13م إلى بلاد فارس، وكان السبب الرئيس في شهرته في أوروبا، وبناء على كتاب "المناظر"، فقد وصف (جورج سارتن) ابن الهيثم بأنه أعظم " فيزيائي مسلم وأحد أعظم علماء البصريات في كل العصور". كما أن الخلاصة التي كتبها "جان بيشام" لعمل ابن الهيثم، قد قرئت على نطاق أوسع خلال عصر النهضة الأوروبية.

❖ - <u>الطب:</u>

كتب حنين بن إسحق العبادي المتوفى عام 873م؛ مقدمة لفنون الشفاء تحت عنوان "المسائل في الطب" المعروفة باللاتينية بـ (Vade Mecum of Johannitius)، وهي تحتوي على موجز المبادئ اليونانية حول علوم الصحة، وكان لهذه المقدمة اثر في تعليم الطب وممارسته في العالمين الاسلامي والمسيحي على حد سواء.

وفي أواخر القرن 9م، أصبح أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى عام 925م، اعظم طبيب سريري وفيلسوف في عصره، بحيث لا زالت كتاباته وافكاره الأصيلة بخصوص الطب النفسي؛ وعلاقة المريض بالطبيب؛ وتشخيص الأمراض ساري المفعول حتى اليوم، فعلى سبيل المثال جلبت له مقالته حول الجدري والحصبة الإقرار بكفاءته عالميا، ذلك أن كلا المرضين يحدث طفح جلدي، غير أن الرازي نجح في التمييز بينهما، فحدد أعراض الجدري في الحمى والصداع وحك الأنف والجلد واحمرار العينين والوجنتين والقلق. مقابل ذلك أدرج في اعراض الحصبة ظهور بقع على الجلد وارتجاف مصحب بألم ودوار.

وشكل كتاب الرازي المعروف بالكتاب المنصوري، -حيث أهداه إلى راعيه منصور بن إسحق بن أحمد بن اسد- مرجعا أساسيا؛ تضمن عشرة فصول في الطب السريري والداخلي، ونقل الكتاب إلى اللاتينية تحت عنوان: (Liber Almansorem).

وعرض علي بن عباس المجوسي المتوفى عام 994م، ملاحظات هامة عن تأثير البيئة على الصحة، والقيمة الغذائية للأطعمة في كتابه "الملكي" (Liber Regius). وما كان كتاب أشهر منه إلا كتاب "قانون الطب الرفيع" للطبيب والفيلسوف ابن سينا.

ويدور كتاب "تقويم الصحة" للمختار بن عبدون بن بطلان من بغداد، حول سبل الحفاظ على الصحة السليمة، مما أكسبه قيمة خلال العصر الوسيط، حيث ترجم إلى اللاتينية ونشر مرات عديدة. كما جزم ابن بطلان أنه إذا بقيت العوامل الستة (التي حددها ابن حنين، وهي: الهواء النقي، والاعتدال في الطعام والشراب، والراحة والعمل، واليقظة والنوم، والابتعاد عن الافراط، والتورط العاطفي وردود فعله) متوازنة فإنها تفضي إلى الصحة، وإلا فقد ينجم عنها المرض إذا اختل توازنها.

وعد من بين أهم منشورات الطبيب ابن الجزار القيرواني المتوفى عام 984م، كتاب حول رعاية الأطفال من الولادة حتى سن المراهقة. كما ألف أيضا حول علم المداواة وفن الحمية والطب الداخلي، فانتقلت شهرته إلى الأندلس وترجمت أعماله إلى اللاتينية ونالت اهتماما كبيرا في الأوساط الطبية الأوروبية.

وتفوق "عريب بن سعيد القرطبي" عن ابن الجزار، من خلال كتاب عن علم أمراض النساء وعلم الجنين وطب الأطفال، الذي أهداه لولي نعمته الحكم المستنصر(961-976م) الذي ساند العلم والمعرفة. كما عرفت علوم الصيدلة والنبات تطورا لمعاصريه وهما ابن جلجل والزهراوي(ت الزهراوي المعروف في اللاتينية باسم(Albucasis) 1013م) اللذان قدما إسهامات قيمة في الطب الداخلي والسريري على السواء.

لقد أنهى الزهراوي تأليف موسوعته: "التصريف لمن عجز عن التأليف" في نهاية القرن العاشر، وهي عبارة عن خلاصة وافية تتألف من ثلاثين بحثا، ضمنها معلومات طبية، تمكن من جمعها طيلة سيرة استغرقت 50 سنة من التدريب والتعليم والممارسة. وتميز الزهراوي ببحثين نالا اهمية خاصة، الأول: بحثه الثامن والعشرون المعروف باللاتينية باسم"Liber Servitoris de Praeparatione Medicinorum Simplicium " الذي يصف المستحضرات [ص297] الكيميائية، وصنع أقراص الدواء، واستخلاص

المستحضرات. وتتجلى شهرة البحث في الغرب بحقيقة نشره في البندقية عام 1471م؛ من طرف "نيكولاس جنسن".

وأما البحث الثاني، فموضوعه يتمحور حول الجراحة؛ وهو معزز برسوم توضيحية للأدوات الجراحية يناهز عددها المائتين، ولهذا ترجم "جرار الكريموني" هذا البحث إلى اللاتينية خلال القرن 12م، وأصبح الزهراوي ذا تأثير كبير في علم الجراحة في أوروبا. هذا وأورد الجراح الفرنسي "غي دو شولياك" في كتابه: (الجراحة العظيمة) الذي فرغ منه عام 1363م، ذكر موسوعة "التصريف" أكثر من مائتي مرة.

كما اثنى على الزهراوي كذلك "بيترو آرغيلاتا" المتوفى عام 1423م، بقوله: "زعيم الجراحين قاطبة بلا شك". وبالمثل استفاد الجراح الفرنسي "جاك دلشامب" المتوفى عام 1588م، من شرحه الوافي لموسوعة "التصريف"، مؤكدا الإسهامات القيمة للزهراوي في الطب الأوربي خلال عصر النهضة.

لقد عرف الطب السريري والعلاجي أوجه في الأندلس مع الطبيب ابن وافد المتوفى عام 1068م، وكذا مع ابن زهر المتوفى عام 1162م لاسيما في الممارسة الطبية، حيث اشتهرت أعماله في الغرب باسم (Avenzoar). ولأول مرة في تاريخ الطب وصف ابن زهر في كتابه "التيسير" الخراجات المنصفة بالإضافة إلى التهاب التامور الرطب والجاف. وتعرض بالنقد لكتاب "القانون" لابن سينا؛ وذلك لإسهابه في المفاهيم النظرية والاستدلال الفلسفي على حساب الطب السريري العملي.

وأما ابن رشد المتوفى عام 1198م، المعروف في الغرب باسم (Averroes)، فقد خلف تراثا هاما في الطب، يتقدمه كتاب: "الكليات في الطب"، وهو نص عن النظريات والمبادئ الطبية العامة، وقد ترجم إلى اللاتينية عام 1255م، ثم طبع بشكل مستقل في البندقية عام 1582م.

❖ - <u>التكنولوجيا الميكانيكية:</u>

عرفت الفنون الميكانيكية ازدهارا في العالم الاسلامي ما بين القرنين 9و13م. ويمكن تقسيم منجزات التكنولوجيا الميكانيكية إلى مجموعتين: تتمثل الأولى في الآلات المصممة للاستخدام اليومي، مثل آلات ضخ المياه والطواحين وعتاد الحروب والمعارك. وتتضمن المجموعة الثانية الأجهزة الموجهة للترف والتسلية والمتعة الجمالية والديكور الذي تزايد عليه الطلب من طرف الملوك والأمراء لتزيين فضاءات القصور والحدائق.

ولا عجب أن ينبهر امبراطور العالم الغربي "شارلمان" بما بلغته الحضارة العربية الاسلامية في بغداد من أوج وازدهار، من خلال الوصف العجيب الذي حلى به كاتبه الخاص الهدايا الواصلة إليه من السلطان العباسي هارون الرشيد؛ ومن ضمنها ساعة معدنية متقنة الصنع ومتعددة الوظائف.

إن المعلومات المتوفرة عن اعمال المهندسين العرب والمسلمين مصدرها ثلاث أبحاث رئيسية: خلال عام 850م قام أبناء موسى الثلاثة محمد وأحمد والحسن(كان أبوهم موسى بن شاكر منجما في بلاط الخليفة المأمون (المتوفى عام 833م)، وبعد وفاة والدهم ترك أبنائه في رعاية الخليفة، الذي عهد بتربيتهم لمنجم بيت الحكمة اسحق بن ابراهيم المصعبي، فبرع الأخوان محمد والحسن في الهندسة والفلك، فيما نبغ أوسطهم أحمد في الميكانيك) بتركيب أجهزة كالأواني الخادعة والنوافير والمصابيح والآلات الموسيقية التي تتهيأ بحركات ذاتية. كما تعزى الأعمال التالية: ومنها "القرسطون" أو الميزان الذي ييسر حساب مساحة الأشكال المستوية والكروية. وحول التقسيم الثلاثي للزاوية...

وكتب رضوان بن الساعاتي سنة 1203م بحثا مفصلا عالج فيه إصلاح الساعة المائية التي بناها أبوه فوق بوابة جبرون في دمشق.

وكتب بديع الزمان اسماعيل بن الرزاز الجزري(القرنين 12و13م، نسبة إلى المنطقة الواقعة بين القسمين العلويين للفرات ودجلة) كتاب "معرفة الحيل الهندسية" أو "كتاب معرفة الآلات الميكانيكية البارعة"، يصف فيه بعض الأجهزة، وتتضمن ساعات مائية وساعات الشمع المحترق وأواني خادعة، وأواني قياسات ونافورات وأدوات موسيقية بارعة، وآلات رفع المياه وبابا ضخما مسكوبا بقالب نحاسي. هذا ويزودنا الجزري بتفاصيل دقيقة في كتابه المذكور عن كيفية بنائه لكل جهاز على حدة.

بالإضافة إلى ما سبق، انتقلت إلى غرب أوربا تقنيات الفلاحة والبستنة، وتوظيف تقنية الناعورة (Norias) في ترشيد أعمال السقي. وفي الملاحة البحرية استفاد العالم المسيحي من آلتي البوصلة والاسطرلاب. كما اعتمد "فاسكوديكاما" على مهارة ابن ماجد الذي كان ربانا في طاقمه لاكتشاف الطريق البحري عبر المحيط الهندي.

ومن بين التقنيات العسكرية التي نقلها الغرب عن العرب والمسلمين، التحصينات الدفاعية، واستعمال المدافع وملح البارود. وبالنسبة للصناعات التي استفاد منها الغرب من العرب نذكر منها، صناعة الزجاج التي انتقلت من الموصل إلى البندقية عام 1277م، وحافظت هذه الصناعة على مقوماتها إلى حدود ق17م، من خلال جلب صناع مهرة من

الشرق الأوسط، ومنها انتقلت صناعة الزجاج إلى فرنسا بواسطة الوزير "كولبير" (Colbert). وفي بلاد الأندلس، ذاع صيت الصناع العرب في صناعة وتركيب النوافذ الزجاجية. واشتهر في قرطبة الصانع "ابن فناس" في صناعة الكريستال.

وتعد صناعة الورق من أنفس الهدايا التي نقلها العرب إلى أوروبا، بحيث أصبح متوفرا بأسعار مناسبة مما قلل الاعتماد على ورق البردي. وظهرت ورشات صناعة الورق تباعا في بغداد عام 794م، وفي مصر ظهرت عام 900م، ولم تظهر في المغرب سوى عام 1100م. وكانت أوربا الغربية تتزود بحاجاتها من الورق خلال القرن 12م من الأندلس؛ وتحديدا من مصنع "كزاتيفا" (Xativa).

وبالمثل انتقلت صناعة النسيج إلى أوروبا، حيث أخذ المسلمون من سمرقند خلال القرن8م تقنية استخراج عجين الكتان. بالإضافة إلى ذلك ازدهرت زراعة القطن في مصر، وتطورت في العراق ما بين دجلة والفرات، ويتم تحويله في أوراش الموصل ومنها ينقل إلى أوروبا الغربية.

وعموما يعتبر العرب والمسلمون ورثة الحضارة الاغريقية والهيلينية، في الأقاليم التي كانت خاضعة للامبراطورية البيزنطية، كما ورثوا الحضارة الشرقية الهندية والصينية عبر بلاد فارس والعراق.

نسخ صورتين من الكتاب: ص:298و305

مدخل تمهيدي: أوربا في مستهل عصر النهضة:

يشكل عصر النهضة واسطة بين أواخر العصور الوسطى وبين بداية العصور الحديثة في أوربا، على أنه لا بد من الاشارة إلى اختلاف المؤرخين حول تعيين تاريخ محدد لبداية العصور الحديثة بأوربا، فمنهم من أرخ لها استنادا إلى سيطرة العثمانيين على القسطنطينية سنة1453م، وما تفرع عنه من إحياء للعلوم في أوربا جراء هجرة مفكري اليونان وعلمائهم للقسطنطينية باتجاه أوربا محملين بمخطوطات علمية ثمينة شكلت أساس نهضة أوربا في العصور الحديثة. وبالمثل اتجه آخرون إلى اعتبار الحروب الايطالية المستعرة، والتوتر بين الملكيتين الاسبانية والفرنسية مؤشرا لقيام العصر الحديث.

حاول قادة أوربا خلال الفترة الطويلة التي أعقبت إسقاط الدولة الرومانية القضاء على الفوضى التي خلفها البرابرة الغزاة، وتمكنوا من تحقيق الاستقرار عبر استتباب الأمن والسلام. وكانت مظاهر المدنية والنمو والتقدم والحرية أكثر وضوحا من الفترات اللاحقة. وعرفت الكنائس والأديرة حركية علمية غير مسبوقة خلال القرن الثاني عشر. كما تعززت هذه الحركية بالترجمة التي ربطت اواصر الاتصال الحضاري بين الشرق والغرب، وتأثر الأوربيون بالفلسفة اليونانية القديمة، وشكل "الفهم" معيارا للتمييز بين ذهنيتي العصر الوسيط وعصر النهضة في أوربا، فكان العلم والتعلم يقوم في العصور الوسطى على فكرة "أعتقد لأفهم" دون تمحيص. في حين عكست المسألة في عصر النهضة "أفهم لأعتقد". نتيجة لذلك سادت الروح النقدية، وبرزت الدعوة إلى حرية الفكر والمعتقد، ووجهت سهام النقد للكنيسة الكاثوليكية ورجالها وتعالت الدعوة للإصلاح الديني. ومن مظاهر أواخر العصور الوسطى كذلك، ظهور الجامعات بإيعاز من البابوات الذين يسروا لها كل الدعم البشري والمادي، فأضحت الجامعات كمعاقل لتعميق الفهم وبناء العلم والمعرفة لكن طغى عليها في هذه المرحلة الطابع الديني.

وبالتالي يصعب تحديد سنة معينة تتوقف معها حركة التاريخ، كما يتعذر تعيين فواصل زمنية بين حقبة وأخرى وبين عصر وآخر، لأن الأحداث والوقائع باعتبارها سيرورة إنسانية فإنها غالبا ما تكون مطبوعة بصبغة التعقيد، وعموما فإن الانتقال من حقبة إلى أخرى ومن العصر الوسيط إلى العصر الحديث تظافرت فيه عدة عوامل عبر مراحل. ويمكن رصد تجليات الانتقال في العناصر التالية:

على المستويين الاجتماعي والاقتصادي:

ساد النظام الاقطاعي مرحلة العصر الوسيط، وكان الاقطاعيون يسيطرون على الأرض كمصدر للثروة الاقتصادية ويتحكمون في من يعمل بها من عبيد وما يدب عليها من حيوان. وما بين هاتين الطبقتين حلقة مفقودة تتجلى في انعدام الطبقة الوسطى التي تمثل أساس الحراك الاجتماعي.

بالرغم من اعتراف الأشراف بالملك، إلا أن هذا الأخير وفي ظل سيادة النظام الاقطاعي كان مثله مثل الأشراف، كان يمارس حكمه في باريس كإقطاع خاص به دون أن يمد نفوذه إلى إقطاعات أخرى واقعة تحت تصرف الأشراف، فتوترت العلاقة بين الملوك و الأشراف، وبسط الملوك سلطتهم خارج باريس فأنهكت قوى الطرفين، وكانت النتيجة حصول تطور اقتصادي مهم تجلى في انهيار النظام

الاقطاعي وتحرر الأرقاء واستفادوا كغيرهم من حق ملكية الأرض، وظهر انفراج في مصادر الثروة التي لم تعد مقصورة على الأرض وحدها بل انضافت إليها الصناعة والنشاط التجاري، فكانت نتيجة ذلك كله ظهور طبقة وسطى أسهمت في انفتاح أوربا عبر الأنشطة التجارية وربط علاقات مع الشرق، كما اسهمت الكشوفات في اتساع الروابط التجارية لتمتد إلى العالم الجديد. وهكذا توافقت مصالح الملكية مع أهداف الطبقة الوسطى الساعية إلى تنمية ثرواتها فتحالفا ضد الأشراف لدعم مناخ الاستقرار كسبيل موضوعي لانتعاش الطبقة الوسطى التي حازت ثقة الملوك وأصبح ممثلوها أعضاء في البرلمان وحكاما في مختلف الأقاليم.

وبالمثل انتقل التفوق التجاري من المدن الايطالية إلى الدول المطلة على شواطئ المحيط الأطلسي، وظهر هذا التفوق على التوالي في الدول التالية: البرتغال وإسبانيا والأراضي المنخفضة ثم فرنسا وإنجلترا. كما شكل التنافس بين هذه القوى دعامة لتكوين مستعمرات لها فيما وراء البحار.

على المستوى العسكري:

شهدت أوربا في أواخر العصور الوسطى تحول جيوشها من اعتماد الأشراف على جمع الجنود إذا ما دعت الضرورة إلى نشوب حرب، إلى تأسيس جيش قار مرتبط بالملك في السلم والحرب، كما أن ظهور البارود شكل دعامة للملوك في القضاء على تهديدات الأشراف عبر دك حصونهم.

سيادة التفكير الحر والروح الفردية(INDIVIDUALISM):

ساد التفكير الحر في شؤون السياسة والحكم، بحيث كافحت العديد من الشعوب الأوربية لتحقفيق قوميتها واستغرق من بعضها قرونا، فإيطاليا وألمانيا لم تنعما بوحدتهما القومية إلا في النصف الثاني من القرن19م، أي أن الأمر تطلب الانتظار إلى ما يناهز ثلاثة قرون لنشوء الدول القومية. ويعود تأخير قيام الوحدة الايطالية إلى سلطة البابا كزعيم روحي حال دون قيام زعيم قومي يوحد البلاد، العامل الثاني يعزى إلى المنافسة التجارية القائمة بين المدن الايطالية وفضلت الاستقلال عن بعضها البعض. كما أن بعض الشعوب والأمم لم تنضج فيها الروح الفردية على مستوى إبداء الرأي السياسي المبني على قناعة ضمن ما هو مرسوم من طرف الدولة صاحبة الحق المطلق إلا مؤخرا في نهاية الحرب العالمية الأولى. إلى أن كسرت الثورة الفرنسية وصاية الدول في المعتقدات السياسية، وذلك تكرس من خلال الشعارات التي نادت بها والمتمثلة أساسا في شعارات الحرية والاخاء والمساواة، فكان ذلك إيذانا بانطلاق مسيرة حقوق الانسان.

وفي السياق ذاته ساد التفكير الحر كذلك في الاعتقاد، وأخذ يتحرر الفرد مما يكبله في معتقده وميوله، وظهرت نتيجة لذلك الدعوة للإصلاح الديني وتخليص الدين من الشوائب التي علقت به، ومن مظاهر هذا النزوع حرية الانتقال من مكان إلى آخر بحثا عن الاستقرار الروحي والنفسي، ذلك إصلاحات لوثر ظهرت في ألمانيا، ولم يجد معارضوه من الألمان أية غضاضة من الانتقال والاستقرار في دول أوربية أخرى تناسب معتقده ولا يضطهد بسبب انتقاداته لمذهب لوثر.

تطور التجارة والصناعة:

منذ العهد الروماني تميزت المدن الايطالية بتقاليدها التجارية مستفيدة في ذلك من أهمية موقعها الاستراتيجي في منتصف حوض البحر الأبيض المتوسط، فكانت دون منازع معقلا للتجارة الدولية، وبالتالي سمح الموقع الجغرافي للمدن الايطالية بربط حسور الاتصال بالبيزنطيين من جهة وبالعرب المسلمين الذي ذاع صيت حضارتهم من جهة أخرى، فراكم الايطاليون أرباحا جمة من الوساطة التجارية التي لعبوها بين الشرق والغرب، فكانت السفن التجارية لمد بيزا وجنوة والبندقية تبحر إلى الاسكندرية ويافا وعكا والقسطنطينية لجلب الحرير والعاج والذهب والجواهر، إلى جانب جلب ما كانت أوربا في أمس الحاجة إليه من التوابل والرقيق؛ فمن خلال الأسواق العربية نقل الايطاليون موادهم إلى فرنسا وألمانيا. كما استفادوا من منفذ جبل طارق إبان القرن 14م، لنقل بضائعهم إلى إنجلترا وسواحل بحر الشمال. وحتى ينعم التجار بالأمن سهلت الحكومات المتعاملة تجاريا مع الايطاليين سلامة السفن والتجار عبر إبرام معاهدات وهو ما مهد لا حقا لنشأة القانون الدولي. كما أنشأت المصارف والأبناك لتيسير عمليات التعامل وعقد الصفقات بمختلف العملات بحسب البلدان، كما اتسعت التجارة الايطالية إلى أن بلغ مداها أحيانا إلى الصين والهند.

مظاهر النهضة الأوربية ومقوماتها:

عرف المؤرخون عصر النهضة (Renaissance) بالفترة التي حصل فيها الانتقال في أوربا من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، وظهرت النهضة كحركة بعث وتجديد أو ولادة نوعية في إيطاليا أولا قبل منتصف القرن14م، متبلورة في إطار فني، في حين اتخذت النهضة مظهر إصلاح ديني كما هو الشأن في ألمانيا. وعموما امتد عصر النهضة من بداية القرن14م إلى القرن16م، بحيث ظهرت بوادر حركة إحياء العلوم اعتمادا على فكرة إحياء التراث القديم. وفي هذا السياق اهتم المفكرون بالبحث عن التراث الأدبي اليوناني والروماني القديم، من خلال رد الاعتبار للإنسان أولا، فانكب المهتمون على دراسة الانسان في مفاتن جسمه وفي إبداعه الأدبي وفنونه الجميلة وفي مقدمتها النحت والرسم، وهي الامتدادات التي أهملتها العصور الوسطى مركزة فقط على التقشف وإهمال الجسد بالصوم والرهبنة، وباختصار أمعنوا في تغذية الروح على حساب إهمال الجسد.

وكان لسقوط القسطنطينية سنة 1453م في يد العثملنيين اثر في هجرة علماء بيزنطة بعلومهم الموروثة عن اليونان والرومان نحو أوربا الغربية وخاصة استقرارهم بالأقاليم والمدن الإيطالية.

رد الاعتبار للإنسان/ النزعة الإنسية(humanisme):

أطلق على المهتمين بالإنسان حركة الانسانيين(Humanists)، وهي حركة علمية وأدبية وفنية ظهرت خلال القرنين 15 و16م اهتمت بدراسة كل ما يرتبط بالإنسان ، وانطلقت في البداية من إيطاليا لتعم مدنا أوربية أخرى في فرنسا وألمانيا وهولندا، وكان يهيمن على أفكارهم الثقة في قدرة الانسان على التغيير، والنموذج الانساني المنتظر أن يكون في رأيهم فيلسوفا أديبا فصيحا فنانا أخلاقيا وسياسيا باحثا عن الأضواء والشهرة معتدا بنفسه...، ولهذا اتجهوا صوب الكنائس والأديرة وبحثوا عما تختزنه من مخطوطات إغريقية ولاتينية بهدف إحياء العلوم، فمنهم من كرس حياته لدراسة الآداب القديمة فنشأت أفكار تصب في الاهتمام بحياة الانسان في الدنيا قبل الآخرة، في انتقاد صريح لمسعى رجال الدين، وتزعم هذا الاتجاه في الأدب الايطالي(بترارك) لكن تعثرت آراؤه باتجاه الشعب الايطالي نحو الانقسام. كما حاول بعض أعلام النهضة التوفيق بين الدين والنزعة الانسية، حيث أكد (رابلي/Rabelais) "أن العلم دون ضمير خراب للروح، عليك الخوف من الله وخدمته ومحبته، وأن تجعل كل معرفتك وأفكارك له وأملك فيه".

النهضة الأدبية:

قادها رجال دين محميين من قبل الأمراء مدعومين بميلاد الطباعة، فاهتمت هذه المجموعة في البداية بتقليد الأدب اللاتيني والاغريقي القديم في الشعر الغنائي وملاحم الرثاء والهجاء بالأسلوب المنمق، والهدف هو إسعاد الانسان وشكل المسرح مجالا للتعبير عن العواطف الجياشة للإنسان، فأصبحت بذلك الفنون والآداب يعبر بها الأديب عن قوميته وشخصيته. أما في إنجلترا اهتم المسرح بالمغامرات المتنوعة وتشريح أخلاق الانسان وطباعه. وفي فرنسا انكب الأدباء على الابداع في فني النثر والقصص، والتحليل

الخلقي والنفسي. في حين اهتم أدباء إسبانيا بإظهار المثل العليا التي يتمتع بها الفارس. وفي هذا الصدد نسوق تصور الكاتب الايطالي (كاستيكليون/Castiglione) لنموذج إنسان النهضة سنة 1528م بقوله: "نريد إنساننا أن يكون مكونا في الأدب، وأن يعرف ليس فقط اللغة اللاتينية، ولكن حتى اليونانية، وأن يعرف الشعراء، وفي نفس الوقت وبالتوازي الخطباء والمؤرخين، إضافة إلى أن يبدأ في التمرن في كتابة أبيات الشعر النثرية خاصة بلغتنا المحلية المتداولة".

النهضة الفنية:

نشأت النهضة الفنية في إيطاليا منذ القرن 15م واخذت في النمو من خلال التركيز على بعث الفن الايطالي الكلاسيكي إبان الثلث الأول من القرن16م، واهتم الفنانون بمحاكاة الآثار الحضارية القديمة، وأضافوا لمسات إبداعية جديدة للتعبير عن عواطفهم الشخصية المستقلة من وحي معيشهم اليومي، على أساس أن الانسان شكل محور مواضيعهم. تحدث (ميكيافيلي) في كتابه "التاريخ الفلورنسي" بإعجاب وتقدير عن (لوران دومديسي/Laurent medecis) أحد أشهر المحتضنين الايطاليين للأدباء والفنانين، بقوله: "كان يعطف ويرتبط بكل من يمارس الفن ويحمي أناس الأدب. وكان لوران يتذوق الموسيقى والهندسة والشعر، وعنده الكثير من القطع الشعرية المصحوبة والمغتنية بتعليقات وحواشي، وهذا كله من أجل أن يلجأ شباب فلورنسا لدراسة الأدب والفنون الجميلة، ولهذا أسس جامعة (بيزا /Pize) التي نادى على الرجال الأكثر علما ومهنية في التربية في كل إيطاليا للالتحاق بها".

وكانت روما في طليعة المدن التي أولى ملوكها وبابواتها عناية بالفن والفنانين، وفي هذا الصدد فقد تعاقب على زخرفة كنيسة القديس بطرس كبار الرسامين والنحاتين والمعماريين. أما قصر الفاتيكان فقد احتضن أجود ما أبدعه رجال الفن، وقد تم تزيينه في عهد البابوان: "جول الثاني"(1503_1513م) و"البابا ليو العاشر"(1513_1521م) فكانوا بذلك أشبه بالأمراء الزمنيين الذين اهتموا بالفنون عوض اهتمامهم بالحياة الروحية.

وقد جنى الايطاليون ثروات هائلة، إلى أن أصبحوا يقرضون رجال الدين والأمراء، وتضخمت لديهم الأموال وأقبلوا عل اقتناء مواد الترف والرفاهية، مما شجع الفنانين والرسامين على ابتكار روائع الفنون، وخاصة اللوحات الزيتية التي تمثل صورا بشرية مفعمة بالانفعالات بشكل يكاد يطابق الواقع مستغلين علوم الرياضيات التي عرفت تطورا في عصر النهضة، منها على سبيل المثال اللوحة الزيتية التي رسمها الفنان الايطالي ليوناردو دافنشي(leonardo da vinci) التي تؤرخ للعشاء الأخير لعيسى المسيح مع حواريه. فكانت بذلك إيطاليا موطن إشعاع للنهضة الأوربية.

هذا الفنان العبقري الذي انتقل إلى فرنسا بطلب من الملك (لويس12)الذي كان معجبا بلوحاته، استغلها ليوناردو دافنشي لإتمام بعض أعماله، وقد أفصح عن بعض مميزات منهجه في فن الرسم بقوله: "في بعض الأحيان على الانسان أن يختلس سرية النظر في الشارع وفي الساحات والبوادي، ويأخذ بسرعة الخطوط العريضة للإنسان مثلا(دائرة) للرأس، وخط مستقيم أو ملتو لليدين، ونفس الشيء بالنسبة للرجلين والجدع، وبعد الرجوع إلى المنزل يمكن تطوير هذه الملاحظات والنقط المأخوذة، وإتمام الشكل النهائي".

بالإضافة إلى ليوناردو دافنشي (leonardo da vinci) (1452_1519) المغرم بالهندسة والرسم والنحت والرياضيات والمعمار، نذكر من أعلام هذا الفن "مشيل أنج/ Michel Ange"(1475_1564م)ولد بالقرب من فلورنسة، اهتم بفن النحت ولاسيما المجموعة الرخامية المصورة للعذراء والطفل، إضافة إلى ذلك برع في مواهب الشعر والهندسة والتصوير، ولبى دعوة البابا "بوليوس الثاني" لنحت ورسم سقف كنيسة (سيكستين/Six tine) في الفاتيكان، بمجسمات أبدع فيها بدقة وانسجام كبيرين، وكان يباغ عمره حينها 72 سنة، وبالرغم من عبقريته فقد عرف عنه أنه عاش حياة بئيسة للغاية، وكان منطويا على نفسه، ولا يترك أحدا يقترب من أعماله او ورشته. ومنهم كذلك "رافاييل/ Raphael" (1483_1520م)تأثر بأعمال ليوناردو وأنجلو في دراسة الجسد الانساني وتجاوزهما في تناسق الألوان، وقد دعاه كذلك البابا "بوليوس الثاني "للإسهام في تزيين قاعات الفاتيكان.

النهضة الثقافية والعلمية:

كانت حركة الفكر والثقافة ونمط التعليم محتكرة من طرف رجال الكنيسة، وبالتالي هيمنة الفهم الديني على مجالي الفكر والثقافة، وكانت قرارات الكنيسة لا تقبل الجدل وتعاليمهم تقتضي التنفيذ دون إبداء رأي أو نقد. وكان الولوج إلى مجالات المعرفة لا يتم إلا باللغة اللاتينية السائدة في الكنائس والتعليم، ومما يعكس عدم الانفتاح على لغات أخرى أن كل طالب ثبت أن لغته اللاتينية غير سليمة لا تجيزه الجامعة.

اتجهت المناهج الدراسية إلى الثقافة القومية، التي كانت مجرد لغات التخاطب المحلي خارج الجامعات من ذي قبل؛ فنافست اللغة اللاتينية في الجامعات. وكان لجامعة باريس قصب السبق في الدعوة إلى ضرورة استقلال الكنيسة الفرنسية عن الكنيسة البابوية التي كانت تخضع لها كل الكنائس في البلاد الغربية. فتم تجاوز هذه الهيمنة وغدت الكنيسة الفرنسية مرتبطة في عهد الملك لويس الحادي عشر (1416_1483م) بطابعها القومي الفرنسي.

أسهمت الكشوفات الجغرافية التي قادها الرحالة الأوربيين في حدوث النقلة من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، ولهذا شكل الاحتلال البرتغالي لسبتة سنة 1415م، المبادرة الأولى إلى انطلاق الكشوفات البحرية ووصولها نحو العالم الجديد. واكب اكتشاف أمريكا قضية طبع الكتب ونشرها مما فضح القيود التي كانت تفرضها الكنيسة في الجامعات والتشكيك في كروية الأرض، ولا سيما إثبات ماجلان لكروية الأرض بعدما كللت رحلته حول الأرض بنجاح.

وكانت الاكتشافات العلمية قليلة نتيجة القيود التي فرضتها الكنيسة عن الحياة العلمية، وسلط بعض رجال الدين الرقابة على كل تفكير إبداعي فردي حر، على أن روابط اتصال الايطاليين بالثقافة العربية الاسلامية منذ القرن 11م مد يد العون للنهضة العلمية الأوربية التي بدأت تتلمس طريقها منذ القرن13م، وخاصة الحضارة الأندلسية، كما ساعد على ذلك هجرة طلبة العلوم من غرب أوربا إلى مراكز الحضارة الاسلامية التي صحح علماؤها التراث الاغريقي بنقد علمي بحث. كما كان علماء النهضة العلمية ينتمون إلى الحركة الانسانية، فكان وصفهم للظواهر الطبيعية قائما على الملاحظة الموجهة بالعلم الرياضي، ولهذا صححت نظرية البولوني (كوبرنك/ Copernic(1473-1543م) في الفلك النظرية القائلة بثبات

الأرض وأكد أن للأرض حركة دائرية كسائر الكواكب، وأنها تدور حول الشمس. كما وضح أن تعاقب الليل والنهار، والفصول الأربعة هي نتيجة لدوران الأرض حول محورها وحول الشمس. يقول كوبرنك معتزا باكتشافاته: "تأكدت في النهاية بعد أبحاث مطولة من ان الشمس نجم ثابت، تحيط به كواكب تدور حوله، فهو مركزها ومشعلها، ومن ان الأرض كوكب رئيسي خاضع لثلاث حركات، فجميع مظاهر الحركات اليومية والسنوية وتداول الفصول بانتظام، وما يصحب ذلك من تقلبات النور والحرارة بالغلاف الجوي، إنما هو ناتج عن دوران الأرض حول محورها وعن حركتها المنتظمة حول الشمس، وأن المجرى الظاهر للنجوم ليس سوى وهم البصر يولده ولقع حركة الأرض".

وبالمثل عزز العالم الإيطالي (جليلي 1564-1642م) نظرية كوبرنك بشأن دوران الأرض حول الشمس واسهم بدوره في النهضة العلمية. غير أن الازدهار الفكري والثقافي الذي عرفته أوربا خلال أواسط القرن 15م يعزى إلى المخترع الألماني (جوتنبرغ) الذي اكتشف سنة 1454م وسيلة لصنع حروف معدنية، ونقدم شهادة لعامل في إحدى مطابع القرن 16م وهو يقول: "إنه شيء لا يمكن تصديقه أن ترى أربعة أو خمسة أشخاص ينجزون في يوم واحد، وبفضل الاختراع الرائع للمطبعة العمل الذي ينجزه ثلاثة آلاف من احسن النساخين في العالم".

وأصبحت التجارب العلمية في عصر النهضة من الشروط الأساسية لدعم العلم الصحيح، وفي هذا الصدد تعزز القرن16م بنهضة في علم الفيزياء والعلوم الطبيعية والطب والرياضيات.

النهضة السياسية:

نشأ ماكيافيلي (1469_1527م) في فلورنسة، والتحق بخدمة حكومتها عام 1498م، وأصبح أمين سر إدارة الجمهورية، كان يعادي النظام الاستبدادي ويؤيد النظام الجمهوري، وكان يكره رجال الدين، تفرغ للكتابة فألف كتابه المشهور "الأمير" تعرض فيه لأصول الحكم مستدعيا أمثلة من النظام اليوناني والمدن الايطالية منذ العصور الوسطى إلى حدود عصره. وكان يأمل أن يوجد أمير وطني ينقذ إيطاليا من الغزو والانقسام معتمدا مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وأن يكون هدفه المصلحة العليا للبلاد، وينصحه بان يكون مخادعا عند الضرورة طاغية وإنسانيا في الوقت ذاته، وأن لا يمنح الحرية إلا بقدر يسير، وبذلك تتعامل معه الرعية على أساس الحب والرهبة.

النهضة الأوربية وحركة الاصلاح الديني

بلغت الكنيسة الكاثوليكية أوج نفوذها في القرنين 12_13م، بحيث جمع البابا بين السلطتين الدينية والزمنية. وفقدت هيبتها واصبح للبابا بلاط ينافس قصور الملوك لا يعنيه أمر الكنيسة وإنما همه جمع المال ومنافسة الملوك في الترف والانحلال والانحراف، وبلغ الأمر ذروته بانهيار المركز البابوي سنة 1378م فيما عرف بالانقسام البابوي العظيم الذي استمر إلى غاية 1417م. حيث نتج عن انقسام الكرادلة اختيار بابوين: الأول في مدينة "أفنيون" الفرنسية، والثاني في العاصمة الايطالية روما، وكان من أثر الانقسام أن غدت سلطة البابا مثار نقاش عام، انخرط فيه عدد من المفكرين والمصلحين مشكلين بذلك جبهة معارضة لما وصل إليه وضع الكنيسة الكاثوليكية.

ورغم تدخل المجمع الكنسي لرأب الصدع وقرر وضع حد لحالة الانقسام باتخاذ قرار على أن يكون مقر البابوية بروما، وانتخاب شخص واحد لمنصب البابا بحيث تم اختيار البابا مارتن الخامس (Martin V) لهذا المنصب. رغم ذلك لم يثن هذا الاجراء عزم الحركة الاصلاحية على المطالبة بإصلاح الكنيسة، وفلسفة الاصلاح اتخذت سبيلين: الأول، الاصلاح من الداخل: انبثق من داخل الكنيسة، حيث انبرى المصلحين "يوحنا روكلن"(1455_1522م) و"إرزم" (1477_1536م) للقيام بالإصلاحات اللازمة لتسكين الأوضاع المضطربة، فقام الأول بتوجيه انتقادات للكنيسة كسبت تعاطفا وأصبح له أتباع وتلاميذ شنوا هجوما على خرافات الكنيسة وبدعها. أما "إرزم" فقد كان صلة الوصل بين حركة النهضة وحركة الاصلاح الديني وأسهم بأعماله الأدبية في إثارة انتباه الناس إلى ضرورة الانعتاق من تسلط رجال الدين على أفكارهم ومعتقداتهم، وكان للعمل الرائد الذي أقدم عليه من خلال نشره ترجمة للكتاب المقدس اليوناني القديم (العهد القديم) سنة 1516م، اثره البالغ في في تحريض المتدين العادي على البابوية، ذلك أن نسخة الكتاب المقدس اللاتينية التي اعتمدتها الكنيسة ليست الوثيقة الأصلية. وأحدث هذا الأمر خلخلة زادت من معارضة الكنيسة الكاثوليكية من الداخل من خلال مبادرتي "يوحنا روكلن" و"إرزم"، لكن الكنيسة تعنتت ولم تتجاوب مع مبادرات الاصلاح من الداخل.

وبالتالي غدت الأرضية ملائمة لانتعاش حركة الاصلاح الديني، لاسيما وأن الاصلاح أضحى ضرورة لتصحيح مسار الكنيسة والحد من تجاوزات البابا، وفي هذا الصدد، بدأت المرحلة الثانية التي اتسمت بالانتقادات اللاذعة التي صبها المفكرون الألمان على نواقص البابوية المادية والأدبية ساعد على انتشار هذا التوجه اختراع الطباعة شمال ألمانيا مما ساعد الطبقة المثقفة على التعرف عن مثالب الكنيسة عن قرب. أضف إلى ذلك، أن أغلب موارد الأراضي الزراعية في ألمانيا كانت تؤول إلى البابوية في روما، وتدخلت الكنيسة الكاثوليكية في تعيين موظفين يتولون جمع الأموال من المزارعين لصالح

روما. وهكذا أجمعت كل الطبقات على ضرورة تغيير الأوضاع الدينية لتعدد معايبها، فبدأت الثورة الدينية من ألمانيا كأرضية خصبة للمعتقدات أكثر من إيطاليا مقر البابوية.

كان للنهضة الأوربية دور بارز في انتشار فكرة الاصلاح الديني من ألمانيا، ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا رسخت فكرة أن البابا هو ظل الله في الأرض، وبهذا التأويل كان البابا يقصي ملوك أوربا من ممارسة سلطاتهم ويتدخل بدلهم في كل شيء، وتبعا لذلك كانت للكنيسة أملاك وأراضي يتصرف فيها دونهم، ويفرض ما شاء من الضرائب على الأهالي، ويعين ممثليه من الأساقفة دون اخذ رأي أباطرة أوربا وملوكها. وكان من تجليات عصر النهضة وصول ملوك أقوياء مناصب الحكم في أوربا وخاصة في فرنسا الذي أصدر ملكها شارل العاشر مرسوما ملكيا سنة 1438م، يقضي بأن من حقه تعيين أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية دون البابا. وفي إسبانيا صدر أول مرسوم من قبل التاج في عهد (فردناند وإيزابيلا) سنة 1442م، يتم بموجبه تعيين رجال الدين في الكنيسة، كما أن أحكام الكنيسة الاسبانية غير قابلة للاستئناف من طرف المحكمة العليا في روما. في حين احتفظت الكنيسة الرومانية بنفوذها في ألمانيا بسبب ضعف الامبراطور "فردريك الثالث" (1440_1493م) الذي أعطى الحق للبابا في السيطرة على الكنيسة الألمانية، فارتكب ممثلوه فسادا من ابتزاز ورشوة لقبول المرشحين في وظائف بالكنيسة بحجة الاعداد لحملة صليبية ضد العثمانيين، كما تشبه البابوات بالملوك في اقتناء التحف الفنية من روائع النهضة الإيطالية. غير أن أبشع صورة لابتزاز الأموال تجلى في بيع صكوك الغفران في استغلال سافر لسذاجة المتدينين. ومبتكر هذه البدعة البابا (بونيفاس السابع) الذي أصدر مرسوما بابويا مقدسا سنة 1300م يدعى "الغفران"(indulgence) ويدور فحواه على أن المعترف بذنوبه والنادم على خطاياه يتخلص من عقاب الآخرة، لكن على أساس أن يؤدي قدرا ماليا، واستمرت صكوك الغفران في التداول بين المغفلين، إلى أن بعث البابا الراهب يوحنا "تتزل" (Tetzel) إلى ألمانيا سنة 1517م، فشرع يوزع كالعادة صكوك الغفران مقابل المال مما أثار حفيظة المصلح الألماني **مارتن لوثر(1483-1546م)** الذي حصل على شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت، وكانت تؤرقه مسألة التطهر من الخطايا. وتحقق من الفساد المستشري في البابوية عند زيارته روما سنة 1510م، وأخذ يبحث في الكتاب المقدس في مسألة الخلاص فتوصل إلى أن الايمان المطلق برحمة الله هو المخلص من عقابه، لذلك لما رأى استغفال الراهب المذكور للناس ببيعهم صكوك الغفران، اغتنم فرصة اجتماع المؤمنين في كنيسة "وتنبرغ" وعلق على بابها 95 بندا؛ كلها تدين صكوك الغفران وتجعلها باطلة معلنا أن الغفران برحمة الله لا بتدخل البابا، ومن بين البنود نذكر قوله في البند رقم(32): سيحكم باللعنة الأبدية على كل الذين يعتقدون أن خلاصهم سيكون عن طريق صكوك الغفران. وجاء في البند رقم(44): إن مداومة البر والاحسان يكون أحسن، فصكوك الغفران لا تحسن وضعية الانسان إنما توهمه بأنه سيتحرر من ذنوبه .

وفي مناظرته ليوحنا "تتزل" انتقد لوثر البابا ونظام الكنيسة معتبرا أن كل مثقف له الحق في قراءة الكتاب المقدس وتفسيره، وليس من حق البابا أن يفرض تفسيره على الناس، فوجد الناقمون على تصرفات البابا باعتباره واسطة الغفران عند الله الفرصة لدعم آراء "لوثر" الذي استمر في تنوير العامة بكتاباته المتخصصة وتفسير العقيدة الصحيحة، كما وجه الدعوة إلى أمراء ألمانيا بالانخراط في حركة الاصلاح الديني للإشراف على الشأن الديني في البلاد لأن البابا ينازعهم سلطتهم الزمنية، وأعلن عن

رأيه بشأن حياة البذخ التي يحياها الكرادلة، إلى جانب دعوته الصريحة لزواج رجال الدين، فضلا عن عدم لزوم توجه المتدينين إلى روما لأداء مناسك الحج. وضع لوثر الكنيسة الكاثوليكية في قفص الاتهام، فأصدر البابا (ليو العاشر) في دجنبر 1520م قرار حرمان لوثر من الكنيسة باعتباره مارقا عن تعاليم المسيحية. وفي ساحة وتنبرغ العمومية أعلن لوثر تمسكه بالإصلاحات وأحرق قرار البابا أمام الملأ.

طلب البابا (ليو) من الامبراطور شارل الخامس تنفيذ قرار الحرمان بحق لوثر إلقاء القبض عليه، فمثل لوثر أمام المحكمة في يناير 1521م في مدينة فورمس وسئل في المنسوب إليه فلم ينكر آراءه، فحكم عليه بإهدار دمه. فوضعه أمراء شمال ألمانيا تحت حمايتهم في قلعة حصينة تحت حماية (فرديريك)أمير سكسونيا، فأقام بها مدة عام حيث عكف فيها على ترجمة الانجيل إلى اللغة الألمانية فاستفاد الألمان من معاني الكتاب المقدس دون وسائط رجال الدين.

اكتسحت حركة الاصلاح الديني التي تزعمها لوثر ضد الكنيسة الرومانية كل طبقات المجتمع الألماني، فاستغل هذا الأخير ظروفه الاقتصادية والاجتماعية المزرية وأعلن الثورة بعنف وإراقة الدماء ضد السلطة(حيث كان شارل الخامس غائبا في إسبانيا) فخرج لوثر من مخبئه معلنا تبرأه من أعمال العنف والحرب، التي تزعمتها طبقتا الفرسان والفلاحون.

الفرسان والفلاحون والثورة اللوثرية:

كان الفارس في العهد الاقطاعي يمتلك قطعة من الأرض تحتضن قصره على شكل قلعة، وفقد الفرسان في نهاية العصور الوسطى هيبتهم وحاولوا تعويضها بإظهار التماسك وقوة البطش بحيث نفذوا هجمات لنهب محاصيل الفلاحين، أو اعتراض سبيل التجار وإكراههم لاستخلاص جزء من أموالهم. فلما ذاع صيت الحركة اللوثرية ركبوا مدها وانخرطوا في مهاجمة الكنيسة الألمانية وخربوا ما حوته من تماثيل، وسطوا على ممتلكاتها وعقاراتها لاسترجاع ما ضاع من ثرواتهم، وبالرغم من تبرأ لوثر من العنف والقوة فإن حركة التأييد القومي لمارثن لوثر تزعمها الفارسين: "هتن" و"سكنجي" فنشب التوتر بينهما وبين الأساقفة مستخدمين القوة والعنف، فلبى الأمراء دعوة الأساقفة وتمكنوا من قتل "سكنجي"، ولاذ "هتن" بالفرار إلى سويسرا وبها كانت وفاته سنة 1523م، وكان لتصرف الفرسان آثار عكسية على لوثر فحمله البابا المسؤولية.

وبالمثل عانى الفلاحون من حياة السخرة وإثقال كاهلهم بالضرائب الجائرة، وكانوا محرومين من الحقوق الفردية، فوجدوا في دعوات لوثر لتحرير الانسان فرصة للثورة على أوضاع العبودية التي يعيشونها من خلال التخلص من الخدمات التي تفرض عليهم من الاقطاعيين وتقليص ضرائب العشور التي يدفعونها للكنيسة. كما ألحوا على حقهم في الصيد في الأنهار التي تخترق الأراضي التي يزرعونها وحول الأنهار. كما طالبوا بالمساواة بين العبيد والأسياد كما جاءت في الكتاب المقدس من خلال اعتماد المساواة المطلقة. وبالتالي انطلقت ثورة الفلاحين سنة 1524م في ألمانيا وخاصة في الولايات الجنوبية والشرقية. وتغالوا في أعمال العنف وقابل النبلاء والأمراء ثورة الفلاحين بعنف مضاد مبالغ فيه فارتفعت الخسائر في صفوف الثوار وتم القضاء على تحركهم في أواخر 1525م دون أن يحصلوا منها على طائل.

بالرغم من أن مارتن لوثر كان يندد بسياسة النبلاء والملوك اتجاه الطبقة المستضعفة العريضة إلا أن العنف الذي شهدته الثورة جعل لوثر يخرج من المكان الذي كان يتحصن فيه وحاول مغازلة الحكومات الألمانية ليضمن تبنيها لحركته الاصلاحية من خلال دعوته إلى وجوب طاعة السلطات الحكومية ونبذ العنف. بالرغم من مواقف لوثر الأخيرة فلم يأبه الأمراء والنبلاء لموقفه، معتبرين أن ثورته هي أساس الحراك ومبادئ المساواة هي أساس العصيان، فألبوا على لوثر الامبراطور شارل الخامس للمرة الثانية.

قرر الامبراطور المنهك في صراعاته الخارجية ـ(مع فرنسا/والتهديدات العثمانية للنمسا والمجر/ ثم علاقته المتوترة مع البابوية حيث دعا البابا (كلمنت السابع) في ماي 1526م إلى تشكيل حلف مقدس للقضاء على نفوذ الامبراطور في إيطاليا) عقد المجلس الامبراطوري في يونيو 1526 في مدينة سبير(Speier) في بافاريا لتنفيذ القرار الصادر عن مجمع (ورمز) منذ 1521م بطرد لوثر خارج القانون، ومعناه إهدار دمه. إلا أن المجلس الامبراطوري اتخذ قرارا مخالفا لرغبة الكنيسة الكاثوليكية، مؤكدا أنه لكل أمير الحق في اتباع المذهب الديني الذي يرغب فيه أهالي ولايته، فحاز مذهب لوثر شرعيته، ومن نتائج ذلك سيطر الأمراء الذين تبنوا المذهب اللوثري في ولاياتهم على ممتلكات الكنيسة وطردوا رجال الدين الموالين للبابا.

ومعلوم أن البابا (كلمنت السابع) قد دعا في ماي 1526م إلى تشكيل حلف مقدس للقضاء على نفوذ الامبراطور في إيطاليا، فهاجمت قوات الامبراطور روما وأسرت البابا، فعدل من موقفه وقبل الصلح الذي التزم فيه الامبراطور بقمع حركة الاصلاح الديني بزعامة لوثر.

وعلى إثر الانقسام الديني الذي أصبح يهدد استقرار الامبراطورية انعقد المجلس الامبراطوري في نفس المدينة سنة 1529م، واتخذ قرارا ينص على تنفيذ قرار ورمز لعام 1521م الموجب لإهدار دم لوثر وإلغاء الحرية المذهبية التي اختارها الأمراء في ولاياتهم والحد من انتشارها، على أساس الحفاظ على الكنائس اللوثرية القائمة، أما القداس فينظم على الطريقة الكاثوليكية.

بما أن اختيار الأمراء للمذهب اللوثري سمح لهم بضم أراضي الكنيسة الكاثوليكية، وتنفيذ قرارات ورمز معناه إعادة الممتلكات التي استولوا عليها للكنيسة الكاثوليكية، فاحتجوا على القرارات الجديدة للمجلس الامبراطوري الثاني، ولهذا السبب تم تمييز أصحاب المذهب اللوثري باسم "المحتجين" (Protestant).

في الوقت الذي كانت فيه القوات العثمانية تحاصر فيينا سنة 1529م، تجنب الامبراطور فض النزاع الديني بالقوة حتى لا يؤدي ذلك لحرب دينية بين المسيحيين، ثم دعا لعقد مجلس إمبراطوري ثالث بمدينة (اوجزبرج) سنة 1530م، جمع فيه الامراء البروتستانت مع مخالفيهم الامراء الكاثوليك لإيجاد صيغة للتفاهم، لكن تمسك كل طرف بمواقفه، ورغم ميل الامبراطور لآراء الكاثوليك فقد أظهر معارضة باهتة للبروتستانت. وطلب من البروتستانت أن يقدموا مبادئهم كتابة إلى الامبراطور، فقام الساعد الأيمن للوثر "ميلانكتون" (Melanchton) بتقديم مبادئ العقيدة اللوثرية في صيغة معتدلة سميت بـ "الاعتراف العظيم" أو(اعتراف اوجستانا). مقابل ذلك قدم زعماء الكاثوليك وثيقة مضادة فندوا فيها آراء أندادهم

البروتستانت، فنالت موافقة الامبراطور الذي كان يرأس الاجتماع. ولهذا أصدر قراره بتخطئة عقائد البروتستنت، ودعا أنصار اللوثرية إلى الاقلاع عن المذهب المبتدع وإلا سينالون أشد العقاب.

البروتستانت وتشكيل حلف مضاد للكاثوليكية:

قرر البروتستانت الاجتماع في ولاية "هس" وتحديدا في مدينة "شمالكالد" سنة 1530م، وشكلوا حلفا دينيا وسياسيا له جيش نظامي للدفاع عن مذهبهم ومصالحهم، وتعزز الحلف بانضمام عدد من المدن والولايات الألمانية، وحرصوا على تقوية صفوفهم بملكي فرنسا(فرانسوا الأول) وإنجلترا(هنري الثامن)، فالأول: لاينسى هزيمته في إيطاليا على يد الامبراطور فقد شجعهم على الوقوف في وجهه رغم عجزه عن مساعدتهم. والثاني كان يتحين الفرصة للإيقاع بالإمبراطور لأنه أوحى إلى البابا لما كان أسيرا لديه بإصدار الحكم بطلاق زوجته كاترين، فاكتفى بدعم البروتستانت ماديا دون إقحام قواته في الحرب رغم ميوله لقطع الصلة بالكنيسة الكاثوليكية.

المجلس الامبراطوري الثالث و "سلام نورنمبرج" 1532م:

أمام هذا الوضع المشحون ببوادر حرب مسيحية تهدد التعايش الديني بألمالنيا، وبموازاة ذلك كان الخطر العثماني يهدد أبواب المجر، فقد سعى الامبراطور نحو تغليب الحكمة على قمع الحركة البروتستنتية ودعا إلى عقد مجلس إمبراطوري بمدينة (Nurenberg) سنة1532م، فكان الطرفان مستعدان لحقن الدماء وتغليب الحوار والتفاهم على لغة التوتر والعناد، فسمي هذا المجلس "سلام نورنمبرج"، ومما صدر عنه من قرارات بهذا الشأن وقف جميع أسباب المشاحنات الأهلية داخل الامبراطورية، وتوجيه الجهود نحو طرد عدو المسيحية المشترك، فأمد أمراء البروتستانت الامبراطور بالمدد العسكري مما نجم عنه انسحاب العثمانيين سنة 1532م. مقابل ذلك انتشر المذهب البروتستانتي واعتنقته أهالي مدن: اوجزبرج وفرانكفورت وهانوفر وهمبرج.

مجلس مدينة "ترنت"(Trent) 1545م:

حسمت متاعب الامبراطور الخارجية فانتهى خطر الأتراك، وتم وضع حد للحروب الايطالية بعقد صلح سنة 1544م، وهدأت جبهة الصراع الديني الداخلية، فعاد إلى ألمانيا ووجد أن المذهب البروتستانتي قد اكتسح معظم ولاياتها، وأوعز إلى البابا الجديد أن يجري محاولة سلمية قبل أن يعالج الموقف بالشدة والحزم، فدعا البابا "بول الثالث" إلى مجلس ديني عام في مدينة "ترنت"(Trent) 1545م،بمنطقة "التيرول"، فرفض البروتستانت دعوة البابا لأن الايطاليين والاسبان يشكلون فيه أغلبية الكاثوليك، وقرروا أن لا يقيدوا أنفسهم بقرارات مجلس "ترنت"(Trent). تمكن الامبراطور الذي قرر تطبيق القوة من استمالة "موريس" دوق سكسونيا، فخسر البروتستانت قائدا مدربا، كما رزئ البروتستانت بوفاة زعيمهم الروحي مارتن لوثر في17 فبراير عام 1546م. وهكذا تمكنت قوات الامبراطور من هزيمة البروتستانت في معركة "مهلبرج" (Muhlburg) سنة 1547م، وأسر معظم قادتها، لكن الامبراطور سعى مرة أخرى إلى محاولة التوفيق بين البروتستانت والكاثوليك لأن علاقته ساءت مع البابا "بول الثالث" الذي تخوف من سعي الامبراطور إلى إخضاع روما. لذلك سعى البابا إلى التحالف مع عدوه ملك

فرنسا "هنري الثاني". ولهذا حاول الامبراطور شال الخامس وضع نظام جديد ليضمن التوافق المتوازن بين المذهبين المسيحيين.

"النظام المؤقت" والتوافق الممتنع:

رغبة في تحقيق التوافق بين الطرفين، عهد الامبراطور إلى لجنة مكونة من علماء اللاهوت بدراسة عناصر الخلاف والتوتر بين الفريقين، وعلى أساسها تمت صياغة نظام جديد، عرف باسم "النظام المؤقت" وحاول الامبراطور إلزام الكاثوليك والبروتستانت به. لكن هذا النظام لم يرض كلا الطرفين رغم موافقة مجلس (اوجزبرز) فالبروتستانت اعتبروه دون تطلعاتهم بالرغم من إباحته زواج القسيسين، أما الكاثوليك فقد وجدوا في النظام المؤقت تدخلا سافرا للسلطة الزمنية في تفسير الأمور الدينية فرفضوه. فلجأ شارل الخامس إلى فرضه بالقوة مستعينا بالقوات الاسبانية لإرغام البروتستانت، لكن دوق سكسونيا "موريس" انقلب على الامبراطور وانضم إلى صفوف البروتستانت، هؤلاء تعززت قواتهم بالمساعدات التي تلقوها من فرنسا، وبالتالي انهزمت قوات الامبراطور، وغادر شارل الخامس ألمانيا واعتزل الحكم وانزوى في أحد الأديرة بإسبانيا وعهد إلى أخيه "فرديناند" بتسوية الأمر، فترأس هذا الأخير مجلسا امبراطوريا للصلح مع البروتستانت في (اوجزبرج) في فبراير 1555م.

المجلس الامبراطوري للصلح مع البروتستانت في (اوجزبرج) 1555م:

خرج هذا المجلس بصلح عبر فيه الطرفان عن رضاهم، واهم ما جاء فيه يمكن تلخيصه في نقطتين: النقطة الأولى يتجلى فيها الانتصار الكبير الذي حققه المذهب البروتستانتي، بحيث نص على تقرير المبدأ الذي نص عليه المجلس الأول سنة 1526م، من السماح لكل أمير أن يختار بحرية المذهب الذي يرتاح إليه في ولايته، أما الأهالي فهم مخيرون بين اتباع المذهب المختار حيث هم، أو لهم الحق في مغادرة الولاية التي يقطنون بها إلى ولاية اخرى تدين بالمذهب الذي اعتنقوه مع اصطحاب أموالهم دون تعرضهم لإذاية.

وفي النقطة الثانية اتفق الطرفان على أن تبقى أملاك الكنيسة الكاثوليكية التي استولى عليها البروتستانت قبل سنة 1552م بأيديهم. على أساس أن يتم رد الممتلكات التي أخذت بعد التاريخ المذكور إلى الكنيسة الكاثوليكية.

كان هذا الصلح على حساب تجزئة ألمانيا إلى دويلات منفصلة بعضها عن البعض، بحيث تمركز البروتستانت في الشمال، في حين امتدت الكاثوليكية في الجنوب باستثناء دوقية (فورتمبرج) في الجنوب. وكان لهذا الأمر امتداد خارج ألمانيا بحيث انتقل الاصلاح الديني إلى الدول الاسكندنافية. وهكذا ترجم الانجيل في النرويج (التي كانت خاضعة للدانمارك التي تأسست بها أول كنيسة قومية سنة 1560م) إلى اللغة الدانماركية. وتأسست الكنيسة البروتستانتية في السويد في نفس الفترة(1560م). اما سويسرا التي كانت خاضعة كغيرها من الأراضي الألمانية للإمبراطورية الرومانية فقد تسرب إليها المذهب البروتستاني، كما شملت عدوى الاصلاح الديني كل من فرنسا وإنجلترا. وبعد مرور ثلاثا وستين سنة على الهدوء الحذر بين الكاثوليك والبروتستانت، عادت إلى الواجهة الحروب الدينية بينهما في نسق دولي

هذه المرة امتدت من 1618م إلى 1648م بين ألمانيا والدانمارك وفرنسا والسويد وهي المعروفة تاريخيا بحرب الثلاثين عاما.

حركة الاصلاح الديني في سويسرا:

كانت سيادة الامبراطورية الرومانية على سويسرا سيادة اسمية، وخلال القرن 13م تولى قيادة الامبراطورية حكام أساؤوا السيرة فانتشرت الفوضى، فاستغل أحد أمراء أسرة هبسبرج تلك الفوضى في بسط سيطرتهم على جيرانهم، حيث امتد حكمهم قبيل نهاية ق13م، حيث اتفقت ثلاث مقاطعات سويسرية (هي التي تشكلت منها سويسرا الحالية) على إقامة اتحاد للدفاع عن مصالحها المشتركة ضد حكم آل هبسبرج.

استمر الصراع بينهما قرنين من الزمان، كان من نتائجه توطيد التماسك والتعاون بين ولايات الاتحاد السويسري من جهة، ومن جهة أخرى فإن انتصار الاتحاد السويسري على آل الهبسبرج في معركة "مورجارتن" (Morgaranten) عام 1315م، مما دفع بقية المقاطعات السويسرية إلى الانضمام حركة الاتحاد من أجل الحرية والاستقلال، فازدادت قوة الاتحاد السويسري وحققوا انتصارا باهرا كذلك على القوات الامبراطورية في موقعة "سمباخ" (Sempack) عام 1386م، فتوالى انضمام بقية الأقاليم إلى الاتحاد خلال النصف الأول من القرن 15م، حتى شمل كل أقاليم سويسرا الحالية.

حاول الامبراطور "مكسمليان الأول" سنة 1499م، فرض الاصلاح الدستوري(وخاصة جمع الضرائب) على الاتحاد السويسري المستقل كما فرض على ألمانيا، فرد السويسريون بعدم اعترافهم بسلطة الامبراطورية، فاشتعلت الحرب بينهما فانهزمت قوات "مكسمليان الأول" فاضطر إلى توقيع معاهدة "بال" (Bale) وظلت بمقتضاها غير خاضعة للتشريع الامبراطوري، وتمتع الاتحاد السويسري بالاستقلال التام بمقتضى معاهدة "وستفاليا" سنة 1648م.

من وحي التحرر الفكري والديني اللذان سادا عصر النهضة، ظهرت حركة الاصلاح الديني في نطاق الاتحاد السويسري ضد الكنيسة الكاثوليكية في روما.

كان "اورليخ زونجلي" (Urlich Zuringli)(1484م_1531م) واعظا في كنيسة "زيوريخ الكبرى" وكان متأثرا بأفكار المصلحين المعاصرين وفي طليعتهم المصلح "ارزمس"، وتفاعل السوسريين مع أفكاره فانقسم الاتحاد السويسري بشأن دعوته الاصلاحية إلى كاثوليك وبروتستانت، وكانت الاصلاحات التي نادى بها تتمايز عن إصلاحات لوثر في ألمانيا، فإلى جانب معارضته لمساوئ الكنيسة الكاثوليكية، فإنه عارض لوثر في مسألة ان يكون حاكم الولاية أو أميرها هو الرئيس الأعلى للكنيسة، مقابل ذلك اعتبر الكنيسة مؤسسة ديموقراطية تمثل جميع المسيحيين بواسطة هيئة منتخبة تتولى الفصل في الشؤون والوظائف الدينية. ويتفق مع لوثر في محاربة بيع صكوك الغفران، بحيث عارض "زونجلي" بيع أحد الرهبان _المبعوث من قبل البابا _ للصكوك في "زيوريخ" سنة 1519م. كما ندد بظلم الحكام المسلط على الطبقات الفقيرة، فضلا عن شجبه لظاهرة الجنود السويسريين المرتزقة الذين يشاركون مع جيوش دول أخرى(كفرنسا وألمانيا وإيطاليا). ونتيجة لأفكاره اشتعلت الحرب من جديد بين الكاثوليك

والبروتستانت شارك فيها "زونجلي" إلى جانب القوات البروتستانتية التي انهزمت عام 1531م، ولقي "زونجلي" حتفه في معركة "كابل"(cappel) فأحرق الكاثوليك جثته، وتقرر الصلح بين الطرفين سنة 1532م، على أساس أن يكون لكل مقاطعة المذهب الديني الذي يروق لأتباعها.

أما "جون كلفن" (John Calvin) (ولد في فرنسا سنة 1509م)، فقد تخصص في دراسته الجامعية في علم اللاهوت في جامعة باريس، لفتت آراء المصلحين انتباهه، فدرس آراء لوثر، بعد 1534م غادر فرنسا بسبب تعرض البروتستانت لاضطهاد الملك "فرانسوا الأول" ثم استقر بسويسرا عام 1536م، وبها أصدر كتابه الذي يمثل خلاصة التعاليم البروتستانتية تحت عنوان(تنظيمات الدين المسيحي) "Institutes of Christian".

بالرغم من تأثر كلفن بالمعاني الجديدة التي ميزت حركة لوثر الاصلاحية، فقد وافقه في بعضها وخالفه في بعضها الآخر، فقد وافقت آراء كلفن اللوثرية في في أن الانجيل هو الكتاب المقدس وحده، وان المسيح عيسى هو الذي سيشفع للعباد بين يدي الله تعالى. وبالمثل كانت قضية الغفران محط خلاف، بحيث يرى كلفن أن مسألة الغفران لا علاقة لها بالأعمال بل هيب منحة يهبها الله لمن يشاء، بمعنى أن الغفران يدخل في باب القضاء والقدر حسب كلفن. وإذا كان لوثر قد أقر بخضوع الكنيسة للسلطة الزمنية، بحيث يحق لملك أو أمير في سن تشريعات خاصة بالدين، فإن كلفن رفض خضوع الكنيسة لأي رمز من رموز الدولة، بل دعا إلى إيجاد مجتمع يتصف أهله بصفات حسن الخلق كالقديسين، وعلى الملوك أن يقدموا للدين المسيحي الخدمات اللازمة وخاصة نشر المسيحية.

وفي مدينة جنيف السويسرية دعا **جون كلفن**(1564-1509م) لأن تكون أماكن العبادة وفق ما جاء به الانجيل، فقد كانت تعاليم العبادة في الكنائس عبارة عن جلسات للوعظ لشرح العقيدة المسيحية، ومنع الغناء وآلات الموسيقى وعوضتا بالتراتيل، وحلت الشموع محل البخور، ومنعت صور القديسين والعذراء والمسيح، وكأن كلفن يبسط أمام الأهالي نموذجا للمجتمع المسيحي الذي يتطلع إليه المكون من هيئة رجال الدين لحكم الكنيسة، أما المجتمع الكنسي فيتألف من القساوسة والمواطنين الصالحين لحكم المدينة، وكان للكنيسة حزم واضح في معاقبة المستهترين بتعاليم الدين، والحجر على الحرية الشخصية للرعايا، فتأكد كلفن أن حياته مهددة فغادر جنيف في أبريل 1538م. ولم يلبث المواطنون في جنيف أن دعوه إلى العودة إلى بلادهم بعد أن اهتم بالتبشير بمبادئه في "ستراسبورج" . ثم عاد سنة 1541م إلى جنيف ليتم نشر مبادئه إلى أن توفي سنة 1564م.

الكشوفات الجغرافية والتمهيد للتوسع الأوربي:

أوحت الدوافع الاقتصادية والدينية باتجاه الأوربيين نحو المغامرات الاستكشافية، لفك ألغاز أجزاء كبيرة من العالم المجهول، خصوصا وأنهم لا يعرفون شيئا عن وجود قارة بأكملها ناحية الغرب. ورغم أن علماء الاغريق قد أشاروا إلى كروية الأرض، في حين أن الفكرة التي كانت سائدة أن الأرض مسطحة.

إن الرغبة في الحصول على المنتوجات الشرقية بأبخس الأسعار، كان وراء اتجاه الكشوفات صوب البحث عن الطرق البحرية الجديدة الرابطة بين أوربا والهند لتفادي الوساطات المحتكرة لتجارة الشرق التي لا تصل إليهم إلا بعد ندرتها وارتفاع أسعارها. يضاف إلى ذلك ارتفاع قيمة الرسوم التي يدفعونها إلى جمارك مصر والشام، فضلا عن احتكار تجار جمهورية البندقية دور الوساطة في نقل البضائع من موانئ مصر والشام إلى أوربا. وبالتالي سعى الأوربيون إلى مغامرات الكشوفات لتحقيق هدفين اقتصاديين: فمن جهة يتخلصون من الوساطة البندقية المحتكرة لنقل البضائع من خلال الارتباط المباشر بمصادرها في أسواق الشرق. ومن جهة ثانية، القضاء على القوى العربية ـ الاسلامية، ثم الوصول إلى طرق بحرية جديدة لا تسيطر عليها مصر ولا تتحكم فيها الدولة العثمانية، تسمح لها بالوصل إلى سلع الشرق دون احتكار أو وساطة من التجار البنادقة ايضا.

وإلى جانب الدوافع الاقتصادية، كان العامل الديني حاضرا بثقله الروحي في تغذية حركة الكشوف، فقد كان الاسبان متحمسون لتوسيع حملاتهم التبشيرية لنشر المذهب الكاثوليكي من جهة، والقضاء على أعدائهم المسلمين من جهة أخرى. وفي هذا الصدد كلف الاسبان الملاح البندقي كريستوف كلومبس بالإعداد إلى رحلة باتجاه الغرب سعيا للوصول إلى الهند وأسواق الشرق، الشيء الذي توافق مع رغبته في استغلال ثروات الشرق لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين.

الكشوفات البرتغالية:

استطاع البرتغاليون بما توفر لديهم من خبرة في الملاحة البحرية وحيازتهم لسفن متطورة واهتمامهم بعلمي الفلك والجغرافيا واستخدامهم للبوصلة من القيام بمغامرات كانت نتائجها إيجابية باكتشاف مواطن جديدة.

1- كشوفات هنري الملاح (1394_1460م):

يعد هنري الملاح الابن الثالث للملك البرتغالي يوحنا الأول، وكان شديد التعصب للمسيحية، كما اهتم بعلمي الفلك والجغرافيا والطرق البحرية الملائمة للسفن الشراعية، فضلا عن اهتمامه البالغ بصناعة السفن المتطورة القادرة على الصمود في وجه العواصف عند توغله باتجاه المحيطان. وبالتالي فإن مغامراته في القضاء على القرصنة البحرية في شمال إفريقيا كانت مبررا لشن حملة على شاطئ المغرب الشمالي حيث تمكن من السيطرة على سبتة سنة (1415م) فعينه أبه يوحنا الأول حاكما عليها، وعندما عجز عن التقدم نحو طنجة بسبب بسالة المقاومة المغربية اتجه غربا نحو سواحل المحيط الأطلسي فأحكم السيطرة على المناطق الممتدة من نهر السنغال إلى غانا. وانسجاما مع معتقداته ذات النزعة الصليبية قام بنشر المسيحية في إفريقيا. غير أن مشروعه التوسعي تطلب نفقات باهظة فوجد ضالته في الحصول على الأموال من خلال الاتجار في بيع الرقيق. لأنه وضع نصب عينيه هدفين: يتجلى الأول في الوصول إلى أسواق الهند والشرق. ويتلخص الثاني في رغبته الدينية الجامحة في الوصول إلى مملكة القديس يوحنا حاكم الحبشة في شرق إفريقيا لربط تحالف معه واتخاذ بلاده قاعدة لتأمين تقدمهم صوب البحر الأحمر وموانئ بلاد العرب ثم إلى الهند والصين، وأخيرا تحقيق أمله بالوصول إلى الشرق الأقصى عبر أقصر طريق، وبالتالي ضرب القوى الاسلامية التي كانت تسيطر على الأنشطة التجارية.

وهكذا تكللت مساعي هنري بالنجاح في مواصلة ارتياد الساحل الغربي لإفريقيا، وإقامة مراكز دفاعية محصنة لتأمين العمليات التجارية. ثم تحقق له عام 1441م الاتصال بالبقاع الافريقية وتمكن مرافقوه من استغلال غاباتها ورسموا خرائط حديثة عينوا عليها الوحدات الجغرافية الكبرى كمعالم محددة، ثم توفي هنري الملاح سنة 1460م. وفيها اكتشف أعوانه جزر خليج الرأس الأخضر. وبالتالي مات هنري وتوصل البرتغاليون إلى تحديد طريق رأس الرجاء الصالح، ووصلوا عبر البحر إلى سواحل الهند.

واصل الملك يوحنا الثاني الجهود التي بدأها هنري، حيث وجه بعثة بحرية إلى ساحل ليبيريا سنة 1462م، وتمكنوا من احتكار الملاحة البحرية على الساحل الغربي لإفريقيا ولم يسمحوا لغيرهم بالملاحة إلا بمنحهم تصريح خاص. هذا وحصل أن توقفت الكشوفات البرتغالية بسبب الحرب التي اندلعت بينهم وبين جيرانهم الاسبان في الفترة ما بين 1475_1479م.

2- كشوفات بارتلوميو دياز (Bartholomeo Diaz):

استأنف البرتغاليون أنشطتهم البحرية فأرسل الملك يوحنا الثاني(Bartholomeo Diaz) سنة 1487م لاستكمال الدوران حول القارة الافريقية بهدف الوصول إلى الهند عبر محاور بحرية جديدة لتفادي الطريق القديم عبر البحر المتوسط مرورا ببلاد الشرق العربي، ومن ثم اتجه (Bartholomeo Diaz) جنوبا عبر الساحل الافريقي، إلى أن حط بخليج ألجوا (Alagoa)، ثم رجع إلى بلاده أن طريق الهند أصبحت واضحة، فأطلق يوحنا الثاني على الخليج المذكور "الرجاء الصالح" لأنه بعث الأمل والرجاء في وضوح الطريق الموصل إلى الهند.

وفي إطار التنافس، سعى الاسبان إلى تأمين ما اعتبروه حقهم في التوجه إلى الأراضي المكتشفة من خلال الابحار غربا للوصول إلى الهند، وأوكلت تنفيذ هذه المهمة إلى الرحالة الجنوي "كريستوف

كلومبس" سنة 1492م. تطور التنافس إلى نزاع بين الجارتين، فأشرف البابا "اسكندر السادس" على التحكيم بينهما، بحيث قضى أن تقسم بينهما كل الجزر المكتشفة في الغرب وباتجاه الهند أفي المحيطات، وشكل حكمه هذا محورا لمعاهدة "توردیسیلاس" (Tordessillas) المبرمة بينهما سنة 1494م، وعلى أساسها أصبحت البرازيل من نصيب البرتغال دون منازع.

3- (فاسكودي كاما) وتهميش الدور التجاري للعالم الاسلامي:

سعى البرتغاليون إلى تهميش دور العرب والمسلمين من خلال حرمانهم من أداء دور ريادي في التجارة الدولية، وبالتالي قاد (فاسكودي كاما) حملة بحرية متجها نحو الهند عبر الطريق الذي رسمه سلفه وتمكن من الدوران حول جنوبي إفريقيا وغدا في ساحلها الشرقي بمحاذاة الموزمبيق، فاصطحب من هناك (أحمد بن ماجد)أحد أشهر الملاحين العرب بحيث دله على أقصر الطرق البحرية المؤدية إلى الساحل الغربي للهند. فاستطاع إبرام معاهدات تجارية مع أمراء الهند وقفل راجعا إلى البرتغال سنة1499م بأحمال مختلفة من التوابل والبضائع المشرقية المتنوعة.

إن انتقال محور التجارة الدولية من الحوض المتوسطي، إلى ساحل المحيط الأطلسي شكل انتكاسة اقتصادية للعالم الاسلامي بشكل عام، ولمصر والبندقية بشكل خاص، حيث أسدل الستار على دورهم في الوساطة بين الهند والصين من جهة وبينهم وبين أوربا من جهة أخرى. ذلك أن خزائن مصر المملوكية كانت تعج بأموال تجار جنوة والبندقية الذين كانوا بضائعهم من الشرق نحو البلاد الأوربية عبر محورين كانا تحت قبضة مصر المملوكية خلال القرن 16م: الأول، طريق الفرات وحلب واسكندرونة ومنها إلى أوربا. والثاني طريق البحر الأحمر والسويس، ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة، ثم على بالسفن على نهر النيل، باتجاه الاسكندرية، ثم تنقل إلى البلاد الأوربية عبر الموانئ الايطالية. وهكذا سيطر البرتغاليون على التجارة الشرقية وطردوا العرب من البحار الشرقية، ومكنتهم السيطرة على عدد من الحصون والموانئ من إغلاق البحر الأحمر والخليج العربي في وجه الملاحة العربية، وفي سواحل الهند أقاموا حصونا بحرية وبرية لإرغام أمراء المسلمين في الهند على إبرام اتفاقيات مجحفة تجعل التحكم في دواليب التجارة بيد البرتغاليين فقط. فطلب هؤلاء الأمراء من حكام العرب والمسلمين الانخراط في الحرب ضد البرتغاليين فأعد سلطان مصر المملوكي أسطولا لمواجهتهم في أعالي البحار الشرقية فانتصر البرتغاليون عليهم سنة 1509م في معركة "ديو" البحرية.

4- التوسع البرتغالي في عهد "الفونسو البوكيرك":

اشتهر أكبر القادة البحريين البرتغاليين "الفونسو البوكيرك" بنزعته التوسعية وتعصبه المسيحي ومعاداته للمسلمين، ولهذا كلف لمواصلة تنفيذ السياسة التوسعية البرتغالية، سيطر على مضيق هرمز بالقرب من الخليج العربي سنة 1509م، واستولى على مدخل البحر الأحمر، ثم بسط نفوذه على المناطق الساحلية التي احتلها أسلافه في الهند، وأصبح حاكما فعليا لها بعد استيلائه على "ملقا" بالقرب من سنغافورة.

فشل العثمانيون في وضع حد للطموح البرتغالي بسبب تفوقهم البحري، فتمكن البرتغاليون من التوسع شرقا وغربا في مجال الشرق الأقصى، وبالتالي تطور نشاطهم ووصل ساحل الصين.

نظام لتوسع الإمبراطورية البرتغالة وعوامل انهيارها:

اتجه البرتغاليون في توسعهم نحو مجالين: تمثل المجال الأول في العلم الجديد الذي استأثرت فيه البرتغال بالبرازيل، حيث توغلت فيها منذ 1525م، وكانت سياسة البرتغال قائمة على تشجيع مواطنيها على الاستيطان بالبرازيل فأقطعت الأراضي للمغامرين البرتغاليين، ونشرت بها المذهب الكاثوليكي فسادت لغتها ونظمها، غير أن الأهالي أرهقوا بالعمل في مزارع قصب السكر البرتغالية، فجلب البرتغاليون العبيد من غربي إفريقيا للعمل في المزارع والمناجم فارتفع الانتاج وشيدت المدن، وأصبح البرتغاليون بالبرازيل يشعرون أنها وطنهم ولم تستقل عن الاحتلال البرتغالي إلا في القرن 19م.

أما المجال الثاني، وهو الميدان الشرقي في إفريقيا وآسيا، بحيث لم يتوسع البرتغاليون لاستغلال الأراضي الفلاحية واستخراج المعادن، وإنما احتلوا المراكز والمحيطات بغية احتكار الأنشطة التجارية وعائداتها، ومع ذلك لم يتحقق لها هذا الهدف بشكل خالص بحيث استطاع التجار العرب تجاوز الحصار البرتغالي البحري بنقل ما خف من البضائع الشرقية صوب البحر الأحمر والخليج الفارسي ثم ينفذون بها إلى مصر وعبر إيران والعراق إلى موانئ الشام حيث يبيعونها إلى تجار البندقية، وبدورهم ينقلها هؤلاء إلى موانئ فرنسا وإيطاليا، على أساس أن البضائع الشرقية أخذت تصل إلى الاسكندرية وحلب بكميات تحقق الاكتفاء منذ 1540م.

توفي الملك البرتغالي "هنري الكردينال" فطالب ملك إسبانيا "فليب الثاني" بعرشها وضم البرتغال إلى سلطته عام 1578م، وبالمثل ضم كل المستعمرات البرتغالية في أمريكا الجنوبية وإفريقيا وجزر الهند الشرقية مما شكل مداخيل هامة للخزينة الاسبانية. وتعززت سيادة "فليب الثاني" على شبه جزيرة إيبريا بمقتل آخر ملوك البرتغال "سيبستيان" عام 1580م، إلى أن استقلت من جديد عام 1640م.

منذ منتصف القرن 15م أخذ الضعف يدب في الامبراطورية البرتغالية بسبب بسط فيليب الثاني لسيادته على البرتغال فأهمل شؤونها فوجدت الدول الأوربية(فرنسا ـ إنجلترا ـ هولندا) الفرصة سانحة للتوسع على حساب ممتلكات البرتغالية. وبالرغم مما كان يبدو من ازدهار في العاصمة البرتغالية لشبونة لكونها مركزا تجاريا، فإن الأنشطة الاقتصادية الأخرى طالها الاهمال فتحول المزارعون إلى جنود للمشاركة في الحملات والرحلات، فهجرت الحقول وتعرضت للبوار، فعم البؤس شرائح واسعة من سكان المناطق الداخلية، وحاول البرتغاليون الاستعانة بالعبيد لكن دون جدوى.

كما أن نظام الحكم الذي أقاموه في أملاكهم عجل بسقوط إمبراطوريتهم، بحيث سعوا إلى تدعيم حكمهم فقط عن طريق إقامة محطات مسلحة لإمداد أساطيلهم ومراقبة منافذ البحار الرئيسية في سومطرة ومسقط وعدن وهرمز وملقا لتأمين تجارة التوابل، في حين منع الأهالي من التجارة، واحتفظ الحكام الوطنيين بمناصبهم وحكمهم مقابل دفع جزية معلومة للبرتغاليين. أما في الشرق الأقصى فقد اقام البرتغاليون نظاما يقضي باحتكار نائب الملك البرتغالي للسلطة بشكل مطلق في مقر إقامته في "جوا"، ومع أن فترة حكمه لا تتعدى ثلاث سنوات فقد مارس الشطط في الضغط على الأهالي لجمع الثروات،

وفرض عليهم ضرائب جائرة لتلبية النفقات المتزايدة للإدارة البرتغالية المتسعة في مستعمراتها، كما كان يتمتع "بحصانة" وليس من حق أحد أن يحاسبه باستثناء الملك البرتغالي. ونظرا لتعصب البرتغاليين للمذهب الكاثوليكي فقد أكرهوا الأهالي على اعتناق المسيحية وفق مذهبهم مسخرين في ذلك محاكم التفتيش التي فعلوها منذ 1560م في "جوا" مقر قيادة نائب الملك البرتغالي.

الكشوفات الاسبانية:

1- كشوفات "كريستوف كلومبس" ونتائجها:

كانت رغبة الاسبانيين شبيهة برغبة البرتغاليين في التحرر من سيطرة البندقيين على التجارة والسعي للوصول إلى دول الشرق من خلال محور بحري مباشر للتحكم في التجارة الدولية. ففي الوقت الذي وجه فيه البرتغاليون عنايتهم لتحقيق مآربهم نحو الشرق، سلك الاسبان ناحية الغرب معولين على خبرة الرحالة الجنوي "كريستوف كلومبس" الذي خرج سنة1492م إلى المحيط واتجه غربا حتى بلغ أرضا يابسة فظن أنه أرسى بجزء من سواحل الهند. وتواصلت رحلاته على مراحل حيث اكتشف في رحلته الأولى جزر الأنتيل الصغرى والكبرى وأطلق عليها سان سالفادور، وعقد العزم في رحلته الثانية على نشر الديانة المسيحية بين السكان الأصليين الذين سماهم بـ "الهنود". وفي رحلته الثالثة اكتشف أمريكا الوسطى ووصل إلى مصب نهر أورينوكو عام 1498م، ونتيجة لحقد المستثمرين على "كلومبس" ووشوا به إلى الملك الاسباني على أنه بذر أموال الدولة دون أن تحصل على ثروات من الذهب ولا من توابل الشرق واستقدم الملاح الجنوي إلى إسبانيا مكبلا في الأصفاد وتوفي سنة 1506م.

عمل الملوك الكاثوليك على تثبيت ملكيتهم للأراضي المكتشفة، حيث اختلطت لديهم المشاعر الدينية بالأهداف الاقتصادية، لاسيما عندما كثف البرتغاليون من أنشطتهم بغرض الكشوفات البحرية، يقول المؤرخ فيشر "كانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام، لا لأنها ستكون وسيلة إلى تنصير الوثنيين فحسب، بل ستفضي إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق، وكان المعروف أن نجاشي الحبشة مسيحي، وكان المعتقد أنه لا تزال توجد في الهند؛ نتيجة لبعثة القديس توما، دولة مسيحية يحكمها الخان الأكبر، وكان أمل أوربا الكاثوليكية أن تتلقى الدعم من هؤلاء الملوك المسيحيين الشرقيين في حرب صليبية تشنها على المسلمين. تلك هي الخطة التي رسمها البابا نقولا الخامس منذ 1454م في مرسوم بابوي أرسله إلى ملك البرتغال. وفي هذا الجو المفعم بالآمال أبحر كولمبس غربا ليكتشف الطريق إلى الهند". وفي هذا السياق اهتم البابا الاسكندر السادس بتقسيم الكشوفات الجغرافية بين الملوك الكاثوليك سنة 1492م، وهذا الاهتمام هو الذي بنيت على أساسه معاهدة "توردیسلاس".

كما شكلت رحلات "كريستوف كلومبس" حافزا لرحلات جدد استطاعوا خلال الفترة الممتدة بين 1499م و1508م أن يصلوا إلى جزر بهاما، ومنها إلى مصب نهر الأمزون وقناة باناما، وتلا ذلك ترسيخ حكم إسبانيا في أمريكا الوسطى والجنوبية، وفي طليعة هؤلاء المغامرين الجدد "بالبوا" (Balboa) الذي عبر قناة باناما وشاهد المحيط الهادي أوعلن سنة 1518م خضوع هذه الجهات لسلطة ملك إسبانيا.

2- كشوفات "فرديناند ماجلان":

كلف الامبراطور شارل الخامس قبل الملاح البرتغالي "فرديناند ماجلان" (1519-1522م) الدخول في خدمة إسبانيا، وكلفه الامبراطور شارل الخامس بالبحث عن الطريق الغربي للهند، فأبحر ماجلان في شتنبر 1519م، حتى بلغ ريودي جانيرو بالبرازيل، ثم دار حول أمريكا الجنوبية، وتوغل في نونبر 1520م في المحيط الذي سماه بالهادي وواصل إبحاره إلى أن حط الرحال بجزر الفلبين التي وصلها البرتغاليون قبله من جهة الشرق، فتوطدت حينئذ فكرة كروية الأرض.

3- كشوفات " جون سباستيان دل كانو ":

كان "فرديناند ماجلان" يتولى القيادة العامة لأسطول يتألف من خمس سفن، وبعد وفاته سنة 1522م، قاد "جون سباستيان دل كانو"(del cano) سفينته في جزر البهار عبر المحيط الهندي إلى الطرف الجنوبي لإفريقيا ثم رجعت إلى إسبانيا بعد أن أكملت دورتها حول العالم، فربط الامبراطور شارل الخامس هذا الانجاز بالنصر الإلهي الذي خص الله به النمسا الكاثوليكية باعتبارها إمبراطورية كل الوجود لتسود على العالم الكاثوليكي برمته.

4- هرنندو كورتيس(Hernando Cortes) يسيطر على كوبا، وبيزارو يضم البيرو:

من كوبا التي كانت خاضعة لسلطة إسبانيا، أبحر "كورتيس" إلى المكسيك وألحقها بممتلكات إسبانيا واعلن نفسه حاكما على سكانها الأصليين المعروفين بـ"الأزتك"، وذلك بعد أن أسر ملكها "مونتيزوما".

كان "بيزارو" رجل من عامة الاسبان ذو ثقافته محدودة، سيطر على فكره ركوب مغامرات البحر من أجل الذهب، وهكذا التقى في باناما في خريف 1522م بملاح إسباني أخبره أنه على ساحل المحيط الهادي بأمريكا الجنوبية أرض غنية تسكنها أقوام "الإنكا"، فأبحر رفقة مائة ملاح مغامر على متن سفينة واحدة غير أنها انتهت بالفشل، ثم أعاد الكرة سنة 1526م، وحط على أرض فلاحية وتيقن من غناها من خلال ما لاحظه من تزين النساء بالذهب، ثم عاد إلى إسبانيا، وحصل في يوليوز 1529م من الامبراطور شارل الخامس على تفويض أصبح بموجبه نائبا للملك في البلاد التي أراد أن يضمها. فأقدم بيزارو على خطف حاكم البيرو وألقاه في النار على مرأى من رعاياه وبحضور الرهبان الاسبان الذين لم يستنكروا هذا التصرف الشنيع.

التوسع الاسباني:

إذا كان البرتغاليون قد اهتموا باحتكار التجارة الشرقية، فإن الاسبان وجهوا عنايتهم إلى الاستغلال المنظم للذهب والفضة واستخدموا الأهالي في البحث عن المعادن النفيسة في مستعمراتهم بأمريكا.

اتسمت عمليات الغزو الاسباني في اول الأمر بالعنف والنهب والسرقة والتسخير، فتكونت لدى الأهالي نظرة عدائية اتجاه الغزاة الاسبان. غير أن البعثات التبشيرية المسيحية الكاثوليكية وفرت للأهالي الحماية من التعسف والاعتداء فانتشرت لغة الاسبان وثقافتهم وديانتهم في العالم الجديد، فأنشأت نتيجة لذلك مدن جديدة بالقرب من مناطق المناجم المزدحمة بالعمال الذين أصبحوا يحصلون على أجور بدل أعمال التسخير وكانت صادرات الذهب والفضة من العالم الجديد نحو إسبانيا تصل إلى أكثر من 95/، لكن لما أخذت إنتاج المعادن النفيسة في التراجع، وجه الاسبان عنايتهم نحو الاهتمام بالزراعة مستعينين باليد العاملة المجلوبة من زنوج إفريقيا للقيام بأعباء الزراعة الجديدة.

نتائج النهضة الأوربية

1- ظهور الراسمالية:

كانت إيطاليا الرومانية زاخرة بالمدن، وكانت التجارة والصناعة أهم موارد الانتاج في المدن، منذ حوالي اوائل القرن 11م، بمعنى ان أنشطة المدن الكبرى بإيطاليا الرومانية راجع لموقعها الجغرافي المشرف على البحر المتوسط سمح لها ان تؤدي دور الوسيط التجاري بين الشرق وباقي دول أوربا، ونتيجة لذلك نشأت شركات تجارية في المدن الايطالية الساحلية مثل بيزا وجنوة والبندقية التي كانت لها صلة بمدن الشرق التجارية مثل يافا وعكا والقسطنطينية. فكانت البضائع التي تقلها السفن إلى سواحل إيطاليا، تتألف من المواد النفيسة والعاج والتوابل، ثم توزع بواسطة البغال في إيطاليا وألمانيا وفرنسا. وفي القرن الرابع عشر اصبحت السفن المتطورة تعبر مضيق جبل طارق على انجلترا وباقي مناطق الشمال، ونتج عن ذلك ازدهار التجارة العالمية وأنشأت طرق جديدة وجسور، وبالتالي تشكلت طريق من شمال إيطاليا عبر سلسلة جبال الألب عرفت بالسلسلة الفقرية الاقتصادية لأوربا.

وشكلت المنتجات الصناعية الأوربية الموجهة إلى الشرق والمواد والبضائع الشرقية المصدرة إلى أوربا اساس الرواج التجاري، وتبعا لذلك عرفت حركة نمو المدن تباينا يعزى إلى القرب أو البعد من السلسلة الفقرية الاقتصادية، حيث عرفت المدن الشمالية لإيطاليا تطورا اقتصاديا مقارنة بمدنها الجنوبية، وعليه فقد شكلت البندقية مركزا لتجارة التوابل المجلوبة من الشرق. وبالمثل عرفت فلورنسا مركز صناعة المنسوجات الصوفية والحريرية.

أما في شمال فرنسا فقد ازدهرت عدة مدن، ذلك أن المدن الساحلية، وبسبب موقعها الجغرافي كانت موانئ للمناطق الداخلية في حوض الرين. كما عرفت صناعة النسيج في فرنسا تطورا ملحوظا في مدينتي جنت وبروجز. وفي المانيا شكلت خصوبة منطقة نهر الراين من ستراسبورغ إلى كولون، أساس حركة نمو المدن، ساعدها اتصال مدنها عبر مسالك جبال اللب بالمدن الإيطالية. وعلى ساحل بحر الشمال وبحر البلطيق انتعشت بعض المدن في المانيا، وادت دور الوسيط التجاري بين روسيا من خلال بضاعتي الجلود والفرو، وبين مواد الحديد والقطران لاسكندنافيا، وبالتالي تطور الأمر بين مدن الشمال إلى تأسيس اتحاد فدرالي عرف باسم عصبة الهنسا، فاستطاعت هذه الأخيرة خلال القرن 15م أن تبسط سيطرتها السياسية والاقتصادية على ساحلي الشمال والبلطيق من نوفجرود في روسيا إلى بروجز في فرنسا.

نتج عن حركة نمو المدن رواج اقتصادي كبير كانت له انعكاسات على عدة أصعدة، نذكر منها:

- بداية ظهور تشريعات اقتصادية ومعاهدات نظمت العلاقة التجارية بين الدول المتقاربة جغرافيا، مما مهد لميلاد إرهاصات نظام قانون دولي.
- تطورت المعاملات التجارية والمالية ببروز عقود مكتوبة فظهرت الكمبيالات والأبناك.
- من تجليات المعاملات التجارية تصدع نظام الطائفة.

في العصور الوسطى كانت المدن خاضعة على المستوى الاقتصادي لنظام الطوائف الصناعية والتجارية، وتتجلى أبرز خصائص الاقتصاد الطائفي في إلغاء دور التاجر أو الوسيط في عمليات الانتاج.

وبازدهار التجارة الخارجية أخذ نظام الطوائف يفقد مكانته، ذلك أن التجارة الايطالية مع الشرق ما كانت لتزدهر عقب الحروب الصليبية لولا تحديها لنظام الطوائف، وبالتالي جنى أصحابها ثروات هائلة تشكلت على أساسها طبقة صغيرة من الرأسماليين التجار داخل المدن الايطالية وفي سائر أنحاء أوربا الغربية. وكانت تتم عمليات تجارة الجملة الخارجية عبر شركات تجارية بسبب أن رأسمال أي تاجر بمفرده لا يمكن أن يلبي تكاليف هذه التجارة، وهذا ما نتج عنه ظهور نظام الشركة المساهمة.

غالبا ما كانت الشركة تقوم برحلة تجارية واحدة، فإذا كانت مربحة تتخذ الشركة صفة الدوام ويتحول أفرادها إلى أسرة واحدة خصوصا إذا كان يجمعهم رابط قرابة دموية. غير أن هذه الصلات العائلية بدأت تتناقص لصالح السمعة الطيبة في السوق، وهو ما شكل أساس المساهمة في شركة من الشركات التي لم يقتصر نشاطها على المعاملات التجارية، وإنما اهتمت كذلك بالشؤون المصرفية والمالية. ذلك أن الشركات الفلورونسية أكسبت فلورونسة مركزا ماليا قبل نهاية العصور الوسطى، شبيه إلى حد ما بالذي عرفته لندن ونيويورك في القرنين 19و20م. ومع بزوغ فجر النهضة أصبح المال صاحب القوة والسلطة في إيطاليا. ولا أدل على ذلك ن شركة "مدتش" في فلورنسة التي كانت مصرفا عائليا جمع رأسماله عدد من كبار التجار، الذين أولوا عناية إلى التجارة والنقد. وخلال النصف الثاني من القرن 15م، أصبح لبنك "مدتش" فروع متعدد في أوربا، وبفضل ثرائهم المالي وصل أفراد عائلة "مدتش" إلى الحكم في فلورنسة. وبما أن التاجر استطاع التحكم في السوق بإمكاناته المادية عبر آليتي التصدير والاستيراد، فإن نظام الطوائف فقد دوره ووظيفته، لصالح نظام قائم على المنافسة الرأسمالية.

2- النزعات القومية والفردية:

كانت النزعة القومية موجودة في أوروبا وحال دون ظهورها النظام السياسي (الامبراطوري) والاقتصادي (الاقطاع)، والأحوال الفكرية والدينية (الكنيسة الكاثوليكية). ذلك أن الكنيسة والنظام الامبراطوري قسما المجتمع إلى طبقات فكان ولاء الديني للكنيسة، والولاء السياسي، وهذا ما كان يؤثر على إحساس الفرد بانتمائه القومي؛ ذلك أن القومية تقوم على الشعور بالوحدة بين مختلف الطبقات.

وعلى إثر ظهور عصر النهضة، تصدعت الكنيسة الكاثوليكية، وتراجع النظام الامبراطوري، وتعززت الروح القومية، وتمكنت الملكية المطلقة من التغلب على النبلاء والاقطاعيين، وحاربت الكنيسة وهزمت النظام الامبراطوري، وأقامت دولة موحدة على أساس قومي ساندتها الطبقة المتوسطة في الترويج للشعور القومي.

ومن تجليات انتشار النزعة القومية، تزايد الاهتمام باللغات القومية: الانجليزية والايطالية والفرنسية والألمانية والاسبانية، وذلك على حساب اللغة اللاتينية، مما سهل انتشار أفكار عصر النهضة. وللإشارة فإن اللغات القومية كانت سابقة على عصر النهضة، فقد استعملت الخصائص اللغوية في العصور الوسطى من طرف النبلاء والفرسان للتعبير عن المثل العليا لطبقتهم تحت اسم الفروسية. أما في عصر النهضة فقد استقرت الآداب القومية في أوروبا تحت تأثير المدنية. ففي إنجلترا نجد حكايات شوسر(1340-1410م) تعبير عن خصائص الأدب الانجليزي. وفي إيطاليا فإن الكاتب (دانتي) هو أول من استعمل اللغة القومية الايطالية ضمن نسق كوميدي في العبور إلى العالم الآخر، من خلال إبراز الصراع بين مميزات العصور الوسطى وروح التحرر الفكري، ويبدو ذلك بوضوح في عرض (دانتي) لمقابلته مع (فرانشسكا داريمين)، بحيث تورد الأسطورة أن الفتاة الجميلة (فرانشسكا داريمين)، تعرضت لخدعة من أهلها الذين عرضوا عليها شابا وسيما للزواج هو (باولو) فقبلت، بعد ذلك فوجئت بأن زوجها الحقيقي هو أخو باولو الفتى الذميم الخلقة، ومع ذلك بقيت متعلقة بالفتى باولو وتبادلا عبارات الغرام، وانتهى مآل العشيقين بالقتل على يد الزوج. ففي هذا العرض المسرحي تظهر تعاليم الكنيسة في العصور الوسطى فالمذنبون حسب (دانتي) هم الذين اهتموا بإشباع الغرائز وهما العاشقان المستقرين في الجحيم، ثم دعا دانتي الفتاة البائسة فرانشسكا فتأثر لمعاناتها وسقط مغشيا عليه، وهو

تعبير عن خروج دانتي عبر تعاطفه معها من تقاليد العصور الوسطى وهي دعوة لرفض قيود الكنيسة والتعاطف مع روح التحرر الذي غدا ظاهرة عامة في إيطاليا خلال القرن 14م.

وبالتالي اقترنت النزعة الفردية بعصر النهضة، علما أن السلوك الفردي المتحرر وجد إلى جانب السلوكات المعهودة في العصور الوسطى، غير أن رجحان كفة النزعة الفردية رافقها فوضى وتراجع على المستوى الأخلاقي، هذا التراجع شمل خلال النصف الثاني من القرن 15م حتى البابوات الذين أسرتهم الاغراءات الدنيوية مما جعل المناصب الدينية مجالا للمؤامرات والاغتيالات، وهذا ما أدى إلى ظهور دعوات تنادي بالإصلاح الديني، مثل مبادرةالراهب (سافونا رولا 1452-1498م) الذي ثار على مقومات النهضة ودعا إلى التمسك بتعاليم الكنيسة ظنا منه أن الفوضى الخلقية سببها التخلي عن تعاليم الكنيسة مما جر عليه نقمة البابوية التي انتقدها واتهمها بالتفسخ والانحلال الخلقي، وبالتالي وجدت دعوته بين أهالي فلورنسة واعتبر الفوضى الخلقية سببا لغزو فرنسا في عهد شارل الثامن لإيطاليا. وقد نجح رولا في كسب أتباع ومناصرين وكان لا يتوانى في الهجوم على البابوية، فاعتبرته هذه الأخيرة مارقا عن تعاليم الكنيسة، فأعدمته حومة فلورنسا في ماي 1489م. وبالتالي استمرت النزعة الفردية وانتشرت سلوكات أخلاقية مناسبة للاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة في عصر النهضة.

<u>3- تكوين أوروبا في بداية القرن 16م:</u>

كان للطريق التجاري عبر جبال الألب أهمية بالغة خلال العصور الوسطى تجلت في نمو عمليات التبادل التجاري مع الشرق، فاستفادت المدن الواقعة على طول هذه الطريق، بحيث نشأت في معظمها صناعات لتحويل المواد الخام إلى بضائع صالحة للاستعمال، ومنها صناعات تصبير السمك الموجه للتصدير، وكذا صناعة المنسوجات الصوفية التي حصلت بشأنها منافسة أنجليزية هولندية خلال القرن 15م، كما نشطت صناعة بناء السفن في موانئ بحر البلطيق وفي هولندا كذلك. أما صناعة الحرير والأقمشة فقد ازدهرت في إيطاليا الشمالية. وبالتالي نتج عن الرواج التجاري ظهور منطقتان صناعيتان: الأولى شمال غرب أوروبا، وتشمل الأراضي المنخفضة والبلطيق وألمانيا في الأقاليم الواقعة عند مصبات نهر الألب والراين . والمنطقة الثانية في إيطاليا الشمالية. وغدا الطريق المذكور يعرف بالسلسلة الفقرية الاقتصادية لأوروبا، بحيث أسهم في ظهور الدولة الحديثة.

وعلى طول السلسلة، طورت الطبقة الوسطى أنشطتها على المستويين الصناعي والتجاري فارتفعت مداخيلها. ولما كانت الصناعة والتجارة مصدرا الثروة والقوة تزايدت أهمية الطبقة الوسطى، مقابل ذلك لم يعد للأرض تلك السطوة التي كانت لها خلال العصور الوسطى باعتبارها مصدرا وحيدا للثروة، هذا التحول جعل قيمة الأرض تحدد بما تدره من أرباح مثلها مثل باقي السلع والبضائع، ومن تجليات هذه السياسة تحول الرقيق إلى عمال مأجورين، مقابل تراجع طبقة الاقطاع لصالح الدولة الوطنية الحديثة.

أدت الطبقة المتوسطة دورا معتبرا في نشأة الدولة الوطنية الحديثة. كما أن أفول الاقطاع سمح بظهور كيانات في أوروبا على أساس وحدة اللغة والجنس البشري والرقعة الجغرافية مما أدى إلى نمو الشعور القومي الذي أسهم في توطيد التماسك بين مكونات الطبقة المتوسطة المشكلة لمفهوم الأمة ضمن كل إقليم جغرافي قائم على أساس العوامل المتقدمة.

وحتى تحافظ الطبقة المتوسطة على مصالحها وتفوقها على باقي الطبقات، فضلت الاستثمار في السلطة والنفوذ داخل إطار الأمة، فاعتبرت أن ذلك لا يتم دون السيطرة على زمام الوضع عبر تشكيل حكومة مركزية قوية قادرة على تنشيط التجارة الوطنية بفتح أسواق جديدة لتصريف البضائع والسلع، كما أولت الطبقة المذكورة عناية للمؤسسات الكفيلة بالحفاظ على الأمن والاستقرار فدعمت فكرة إنشاء القضاء وتكوين الجيش لحماية البلاد.

وكانت الحكومة المركزية في حاجة دائمة إلى المال للقيام بمهامها، فكانت الطبقة الوسطى سندا لها لحماية ثرواتها، ومن ثم شكلت هذه الحاجة وسيلة تحكمت من خلالها الطبقة المذكورة بالوضع السياسي

للحكومات المتعاقبة. على أساس أن الحكومة المفضلة لديهم هي المنبثقة ضمن نظام جمهوري، علما أنها تعايشت حتى مع الملكية المطلقة كمرحلة انتقالية تؤدي لاحقا بإنشاء الحكم الجمهوري، فقبلت الخضوع للملك شريطة أن يحمي مصالحها من النبلاء، وأن يقبل الخضوع لها نظير ما تقدمه من معونات مالية للحكومة.

هذا التوافق أجهض كل محاولات تغيير الوضع، واصبح الخضوع للملكية المطلقة من مقتضيات الوطنية، وهذا ما شجع بعض الملوك إلى اعتبار سلطاتهم مستمدة من الله، وهو ما كان يعرف تاريخيا بحق الملك المقدس في الحكم. وبالتالي شكلت الدولة الوطنية ذات النظام الملكي المطلق والوراثي خلال بداية العصور الحديثة إبان القرن 16م، الحلقة الأساسية في التكوين الأوربي الحديث.

ظهور الدولة الوطنية الحديثة:

عندما حاولت الطبقة المتوسطة إنشاء الملكية المطلقة في الدول الوطنية الحديثة، كانت أوربا تعرف تحولات اقتصادية ترتبت عليها آثار كبرى من حيث توزيع القوى بين الدول الوطنية الحديثة والتمهيد لنشر الحضارة الأوربية خارج قارة أوروبا. وهذا حصل بسبب انتقال السلسلة الفقرية الاقتصادية نحو الجهة الغربية بشكل تدريجي، وبالتالي انتقلت مراكز التجارة من بحر البلطيق إلى الأراضي المنخفضة، وكذلك انتقال الطريق التجاري من إيطاليا إلى فرنسا عبر نهر الرون وهو الطريق الذي أغلقته حروب المائة سنة الذي تم فتحه سنة 1450م، يضاف إلى ذلك موجة الكشوفات الجغرافية، وبالتالي أصبح المستكشفون ينطلقون من الموانئ الأوروبية الغربية متجهين شرقا حول إفريقيا أو غربا في البحار المجهولة بهدف الوصول إلى الهند، فكان لذلك أثره في سرعة انتقال الطرق التجارية إلى أوروبا الغربية. فكانت الأمم القريبة من السلسلة الفقرية الاقتصادية هي الأمم الموحدة ذات النظام الملكي.

اوروبا الغربية: أ- الأمم الموحدة.

❖ **انجلترا:**

تميز تاريخ انجلترا بتوافق بين البارونات ورجال الدين ومن بعدهم العامة على تقييد الملكية، حصل ذلك منذ صدور العهد الأعظم سنة 1215م(MAGNA CARTA) أساس الدستور الانجليزي وأقدم العهود التي دونت بها امتيازات البارونات ثم الكنيسة ثم العامة، إلى أن تم الاعتراف بحقوق الشعب الانجليزي في أواخر القرن 13م. ولما قامت حروب الوردتين ما بين 1455و1485م (الوردة الحمراء رمز بيت "لانكتر". والوردة البيضاء رمز بيت "يورك")، تطلع الجميع إلى إنهاء الفوضى الناجمة عن الحروب، فأسس هنري تيودور السابع(1585-1509م) ملكية تيودور القوية المركزية، وعليه كانت انجلترا ذات حكومة مركزية قوية في أوائل العصور الحديثة.

❖ **فرنسا:**

يبدأ تاريخ فرنسا عند تقسيم امبراطورية شارلمان في معاهدة فراون 843م. وفي سنة 987م انتقل العرش إلى أسرة "كابيه" التي جعلت من مدينة باريس قاعدة لتوحيد أنحاء المملكة. هذه الأسرة المذكورة واجهت طبقة النبلاء ساندتها الطبقة المتوسطة. وعندما انتقلت أجزاء من الأراضي الفرنسية إلى انجلترا عن طريق الزواج والارث خلال القرن 12م، فأصبح من مهام الملكية الفرنسية استعادة أراضيها من انجلترا. وفي عهد أسرة "فالوا" (VALOIS) خاضت الملكية في فرنسا منذ 1382م حروب المائة عام مع انجلترا، وانتهت بفقدان هذه الأخيرة معظم ممتلكاتها في فرنسا. وفي عهد لويس 11 وشارل 8 ولويس 12 (ما بين 1471-1595م) ضم ملوك أسرة "فالوا" (VALOIS). وبالتالي توحدت فرنسا في بداية العصور الحديثة على أساس قيام الملكية ذات السلطة المركزية.

❖ **اسبانيا والبرتغال:**

بدأ تأسيس إسبانيا المسيحية بإنهاء الحكم العربي لها في القرن 8م. وقامت أول دولة مسيحية في إقليم استورياس، وفي القرن 9م توسعت حدودها وعرفت بمملكة ليون. وفي القرن العاشر

استقلت قشتالة كدولة مسيحية جديدة. وفي الشمال ظهرت مملكة نافار. وفي القرن11م اتحدت قشتالة وليون، وقادت مملكة قشتالة الحرب ضد المسلمين، فحصل التوتر بينها وبين مملكة أرغون إلى أن أنهي واتحدتا معا بزواج إيزابيلا صاحبة قشتالة من فردنند الثاني ملك أرغون سنة 1469م فكان قرانهما سببا في وحدة إسبانيا.

وهكذا استطاعت الملكية أن تتفوق على النبلاء ورجال الدين، ثم استخدمت الملكية في إسبانيا محاكم التفتيش منذ 1481م سعيا للقضاء على اليهود والمسلمين، وبسقوط غرناطة في يد الملوك الكاثوليك سنة 1492م، تم توطيد وحدة إسبانيا تحت نفوذ الملكية المطلقة ذات حكومة مركزية موحدة.

وبالنسبة للبرتغال، كانت في بداية الأمر عبارة عن إمارة خاضعة لنفوذ قشتالة، غير أنها استطاعت التحرر من سيطرتها خلال بداية القرن 11م، ثم تحررت نهائيا من سيطرة قشتالة على يد الفونسو الأول من أسرة برجندي التي حكمت ما بين (1097-1383م)، وفي عهده طرد البرتغاليون المسلمين من لشبونة سنة 1147م، وفي عهد عمه الفونسو الثاني طرد المسلمين من بلاد الغرب سنة 1151م. واستطاعت أسرة (AVIS) في بداية العصور الحديثة توطيد حقوق الملكية في علاقتها مع الكنيسة في البرتغال، وفي بداية القرن 15م أخذت البرتغال تشكل إمبراطورية بحرية جديدة.

ب ـ الأمم الشبيهة بالموحدة:

- **<u>الأراضي المنخفضة النرلندية:</u> كانت متلكات دوق برغنديا شارل الجسور (1467-1477م) تضم بلجيكا والأراضي الشمالية وجزء من فرنسا الشرقية وألمانيا الغربية. حاول شارل الجسور تأسيس مملكة ذات سلطة مركزية وأنظمة مالية واقتصادية موحدة، غير أنه فشل لأن المناطق المستهدفة كانت تختلف بعضها عن بعض على مستوى اللغة والجنس، كما ثارت المدن القوية في الشمال، كما أن دوقات برغنديا أنفسهم كانوا أجانب عن الأراضي المنخفضة التي أرادوا أن يربطوها بالأراضي التي آلت إليهم بحكم الوراثة في الجنوب وهي برغنديا، مما أدى إلى نشوب حرب كان شارل الجسور ضحيتها في موقعة نانس سنة 1477م. وعندما تزوجت ابنته ماري من مكسمليان الذي ينحدر من أسرة هابسبرج الألمانية، والذي أصبح امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة(1493-1519م)، سادت المصلحة الأجنبية في الأراضي المنخفضة. وهكذا تمكنت مدن الشمال الغربي من الاستئثار بالأنشطة التجارية، منها على سبيل المثال مدينة "انتورب" التي حازت تأييد الملوك والأمراء وخاصة "فيليب". وبالتالي أصبحت "انتورب" في بداية العصر الحديث مقر تجارة الأراضي المنخفضة وعنوان الدولة الوطنية الحديثة.**
- **<u>سويسرا:</u> كانت من ضمن أملاك الامبراطورية الرومانية، وفي أواخر القرن 13م اتحدت المقاطعات الشمالية وقررت مهاجمة أسرة الهابسبرج النمساوية والسطو على ممتلكاتها، وهكذا حققت المقاطعات المتحدة انتصارا عليها في موقعة "مورجارتن" سنة 1315م، مما شجع بقية المقاطعات على الانضمام إلى الاتحاد. وشكل انهزام النمساويين في معركة "سمباخ" سنة 1386م، فرصة اعترفوا بعدها باستقلال ثمان مقاطعات مقسمة إلى قروية وأخرى حضرية، فالمقاطعات القروية اهتمت بالمواد والبضائع التجارية وإمداد أوروبا بالجنود المرتزقة. أما المقاطعات الحضرية فتضم المدن الكبيرة التي اهتمت بالصناعة والتجارة مثل مدن بال وزيوريخ وبرن. وبالتالي استطاع السويسريون التخلص من الامبراطورية الرومانية في أواخر القرن 15م، وغدت سويسرا دولة مستقلة عن السيطرة الرومانية وتم الاعتراف باستقلالها رسميا أثناء صلح "وستفاليا" سنة 1648م.**

❖ **ث ـ الأمم غير الموحدة: لم تفلح إيطاليا وألمانيا في إقامة حكومة مركزية في بداية العصر الحديث، بالرغم من وقوع إيطاليا على الطريق التجاري بين الشرق والغرب مما كان له أثره في بروز النهضة فيها مبكرا. حيث ساعدها على ذلك عدم انتشار الإقطاع في إيطاليا على عكس بقية دول أوروبا ولعل ذلك يعزى إلى نمو المدن الكبيرة في إيطاليا في بداية القرن 16م، بحيث كانت كل مدينة كبيرة بمثابة أمة صغرى لها حكومة داخلية وعلاقات خارجية. لقد أسهم الاقطاع في بروز مصلحة مشتركة بين الطبقة المتوسطة والملوك للتخلص من البارونات كما هو الشأن في فرنسا وإنجلترا، ونتج عن ذلك ظهور الملكيات ذات الحكومة المركزية ثم تكوين الدولة الوطنية الحديثة. هذه الوضعية انتفت في إيطاليا نظرا لعدم انتشار الاقطاع فيها، وظلت المدن الايطالية مركز السلطة المطلقة سواء كانت بيد الأمير أو الدوق أو الجماعات الأوليجاركية الصغيرة من التجار على غرار ما عرفته مدن ميلان والبندقية وفلورنسة. وكان لهذا النمو السريع في إيطاليا نتائج ومضاعفات، منها أن صارت المدن الايطالية عبارة عن مجموعة من الأمم الصغيرة سرعان ما تعرضت لخطر الغزو من طرف الدولة الوطنية الحديثة التي قامت في غرب أوروبا التي استطاعت بفضل واردها تحقيق أهدافها الاقتصادية والسياسية.**

❖ **و بالنسبة لألمانيا وبالرغم من وجود المدن الكبيرة بها، فيمكن إرجاع سبب إخفاقها في إقامة حكومة موحدة في كونها كانت متأخرة في نموها لشساعة مساحتها، فبقيت أجزاء كبيرة منها تعاني الفقر نظرا لعدم تطور أنشطتها الزراعية، وبالتالي كانت ألمانيا عاجزة عن إنتاج ثروة تزيد عن حاجياتها الاستهلاكية يمكنها من فائض مالي من شأنه مساعدة أي حكومة ترغب في تقوية سلطاتها. ومع ذلك تعايشت في ألمانيا شعوب جمعت بينها اللغة والجنس الجرماني، مما أوجد نوعا من الشعور الوطني وصار ممكنا أن تعرف ألمانيا وحدات مركزية صغيرة. على أساس أن الموارد التي لا تساعد على إنشاء حكومة واحدة مركزية لإدارة شؤون ألمانيا، كانت من جهة أخرى كافية لسد حاجة الوحدة المركزية الصغيرة.**